٤
أدبيات
تبع الآداب والثقافة المعاصرة

نوال مصطفى

الحياة .. مرة أخرى

Looloo
www.dvd4arab.com

الطبعة الثانية

أبحرتْ وحدي في عيون الناس والأفكار والمدنْ
وتهتْ وحدي في صحارى الوجد والظنون
غفوتُ وحدي، مشرع القبضة، مشدود البدن
على آرائك السعف
طارق نصف الليل في فنادق المشردين
أو في حوانيت الجنون

صلاح عبد الصبور

سأصف لك تفاصيل ملامحه، سأحكى عنه كل شئ، سأجعله يتحرك، يسكن، يتكلم، يصمت، ويثور، سأروى كل شيء.. كل شيء.

المطلوب منك فقط أن تترجمى كل هذا فى خطوط. أريد أن أراه فى صورتك.. أقصد فى لوحتك. أريد أن أسمعه، أحسه، أريده حيًا يتنفس، ويملأ الدنيا جمالاً.

اسمعى ياصديقتى.. أعرف أنك فنانة كبيرة. أعرف أنك سوف تفهمينني وتدركين ما هو المطلوب منك بالضبط.

أريده.. إنى أريده !

هذا هو كل شيء. أعرفت الآن المطلوب ؟

انظرى، دققى جيدًا فى صورته الفوتوغرافية الصغيرة، أنت فنانة وسوف تشعرين بهاتين العينين الحزينتين. كم أحببتهما! تأملى وجهه، هذا الوجه الذى انطبع على صفحة قلبى، تأملى أكثر.. ذلك الشجن الجميل المنساب من نظرته.

سأحكى لك عنه وعنى. سأروى سيمفونية الحب الرائعة التى عزفناها معًا جملة، جملة. سأمدك بكل ما تريدين حتى تحققى أملى.. وتنتزعه خطوطك من الأفق البعيد لتأتى به حيًا، متفجرًا، وبعدها.. لن يبرحنى.. ولن أبرحه.

دعينى أحكى لك عنه ياصديقتى.. أيتها الفنانة الرقيقة لن أرتب أفكارى، سأقول لك توًا ما يرد على خاطرى. أليس هذا أفضل؟!

هو.. ماذا أقول عنه؟

سابح فى عالم فريد.. عالم بعيد، قريب. أشعر كأنه يخاطب هناك فى سماء بعيدة مخلوقات أخرى.. لا نعرفها!

شرود عينيه يحدثنى بذلك. صفاء روحه يشدنى إلى هذا العالم الخاص.. ويدفعنى إلى الغوص فى أعماقه. إحساسه العميق بالحياة يسحبنى معه فى رحلة سماوية.. محلقة!

هو.. ماذا أقول عنه؟

ثورة أحيانًا. نسمة عابرة أحيانًا. مخلوق يعيش بين السماء والأرض يبحث عن معنى لكل شىء. يريد أن تكون حياته

صفحة هامة فى كتاب الكون. يمضى باحثًا عن الحقيقة.. والجمال.

هو.. ماذا أقول عنه؟

حنان دافق وقسوة متحدية. سكون الصمت وتمرد البركان. قلب يفيض بالحب وعقل يفسر طلاسم الحياة ويفك ألغازها.

هو.. ماذا أقول عنه؟

هو، روح وجسد. روح سكنتنى وامتزجت بروحى. وجسد ذهب بعيدًا بعد ما انطبعت صورته فى نفسى. وحفرت تفاصيل ملامحه فى كيانى.

هو.. ما أقول عنه؟

هو.. هو الحياة.. إذا اقترب أو اغترب!

هو.. هو الجمال.. إذا بقى أو ارتحل!

هو.. هو المعنى.. إذا دنا أو ابتعد!

والآن.. أيتها الصديقة العزيزة. هل تستطيعين أن تجسديه حيًا، نابضًا فى لوحتك؟ هل تقبضين على كل هذا وتمسك به خطوطك؟.

هل تسللت روحه الهائمة إليك؟ أعتقد ذلك، فأنا الآن أراه فى عينيك اللتين ازدادتا لمعانًا، وألمح قطرة من الدمع متلألئة بين الجفنين دون أن تنزل. حتى سواد عينيك أصبح أكثر سوادًا، ربما تلبسك هذا الحزن النبيل الذى يشع من روحه.

أراك أيتها الفنانة الكبيرة تشردين . أحس أنك الآن تنجذبين شيئًا .. فشيئًا .. يشدك هو إلى عالمه الأثير . يجذبك بعمق إلى تأمل الحياة .. وما بعد الحياة . يحلق بك إلى مناطق أخرى غير التى ألفناها وعرفناها ..

إنه عالمه يا صديقتى .. فادخليه . عيشى تفاصيله . أقبضى على أحاسيسه وامسكى بمعانيه . ثم . ثم احتويه بخطوطك لا تدعيه يفلت منك وأسكنيه لوحتك .

هيًا .. ابدئى الآن .. أرى الريشة فى يدك تتراقص بخفة ورشاقة . لا بد أنه وصل هناك ، عند طرفها يداعب شعيراتها الناعمة ويحادث ألوان «الباليتة» . هيًا ابدئى .. لا تنتظرى .. إنه هناك !

أن يمسك بهذا القلم .. ظل حلمًا يراوده !

فى كل يوم يحضر «الأستاذ» إلى مكتبه فى الجريدة ، يطلب القهوة السادة ، فيسرع «أحمد» بخفة لعملها . يضعها بحرص ودقة أمام «الأستاذ» على صينية نظيفة تمامًا ، الفنجان اشتراه خصيصًا من أجل «الأستاذ» . أما كوب الماء المثلج الذى يتكاثف البخار على زجاجه الخارجى ، المصاحب للقهوة السادة ، فكان يوحى بمدى الاهتمام الذى يوليه الساعى الشاب للكاتب . والمحبة التى تمتزج بالانبهار بما يكتب .

كان «أحمد» الساعى الشاب ، إنسانًا بشوشًا ، لم يتجاوز الثلاثين . حصل على الثانوية العامة ، لكنه لم يستطع أن يكمل

تعليمه عندما مات أبوه وتركه ليعول ستًا من أخواته، هو أكبرهم. وبعد أن حفيت قدماه وجد هذا العمل بعد أن توسط له أستاذه فى المدرسة للحصول عليه.

كان الشاب الصغير مغرمًا بالقراءة، مأخوذًا بهذا العالم المشحون بالإثارة والمتعة، مسكونًا بشغف البحث والاكتشاف لما بين السطور فى الكتب، مبهورًا بهذا العالم العبقرى الذى يصنعه على ورق أبيض وكأنه يبنى بيتًا جميلًا فى الفضاء!

وكانت تشغله أسئلة كثيرة: كيف يسافر الإنسان بفكره ويرحل بخياله إلى أماكن لم يرها. وربما كانت غير موجودة أصلًا إلا فى خياله! كيف ينسج خيوطًا لأكوان من صنعه، وكيف يحرك بشرًا يجعلهم يولدون، ويموتون. يتكلمون ويصمتون. يسعدون، ويشقون. يفعلون الخير، ويزرعون الشر.

كان يستهويه أن يقرأ الرواية مرتين. مرة ليقطع صفحاتها ويعرف أحداثها ويصل إلى حبكتها ويتعرف أبطالها وما تريد أن تقوله، ومرة أخرى ليكتشف كيف صنع الكاتب هذا العالم الكامل؟ كيف خلق العمل؟ وكان يقف مأخوذًا بتأمل هذه العملية العجيبة التى يسمونها.. الإبداع!

شاء حظه أن يكون عمله فى مكتب الكاتب الشهير الذى قرأ كل رواياته ومسرحياته وقصصه القصيرة ومقالاته. الكاتب الذى انبهر به وتمنى لو يراه مرة واحدة!

لذا فاقت سعادته التصور عندما فوجئ بأنه سيعمل مع هذا الإنسان بالتحديد. ولم يكن على استعداد لأن يضحى بهذه الوظيفة حتى لو جاءته وظيفة أفضل وبراتب أعلى.

كانت أحلى لحظات يومه.. هى تلك اللحظات التى يختلسها وهو يرمق «الأستاذ» وهو يضع رزمة الورق الأبيض المصقول أمامه على المكتب ويخرج من جاكتته القلم الحبر الفضى الأنيق.. ويبدأ فى كتابة مقاله اليومى.

وكانت عينا «أحمد» تغرقان فى تأمل هذا المشهد. حتى تفاجئه نظرة مباغتة من «الأستاذ» فيعتريه الخجل وتزوغ نظراته.. ويضطرب فيبتسم «الأستاذ» ابتسامة رضا ومودة ليمتص هذا الشعور بالحرج عند «أحمد»، ويعطيه المقال ليقرأه ويقول رأيه فيه..

يفجر هذا الموقف بركانًا من السعادة والنشوة فى نفس «أحمد» يلتقط الورق بأصابع مرتعشة من شدة الانفعال يقرأ سطور «الأستاذ» بنهم ودقة. وتجرى عيناه على الورق بحب شديد. ثم ينطلق مبديًا رأيًا واعيًا، وعميقًا، أصبح «الأستاذ» حريصًا على أن يسمعه ويستفيد منه كل يوم.

بعد ظهر ذلك اليوم غادر الكاتب المشهور مكتبه. دخل «أحمد» ينظف المكتب ويحمل الأكواب والفناجين الفارغة. وقعت عيناه على القلم. القلم الفضى المميز.. ذى الحبر الأسود. لقد نسيه «الأستاذ».

لمعت عينا «أحمد» بفكرة مجنونة قفزت إلى ذهنه. أن يمسك بهذا القلم. ها هو حلم حياته يتحقق. فهذا القلم يكمن داخله سحر خاص. يراه فى يد الكاتب الكبير ينساب بتدفق غريب وكأنه يعرف الطريق وحده. ويخاطب الورق بلغة مشتركة.

تراءى أمامه حلمه القديم. لقد قال لى أستاذ اللغة العربية إننى موهوب وسأكون كاتبًا فى يوم من الأيام. هكذا قال لى عندما كنت الأول دائمًا على فصلى فى اللغة العربية وأحصل على الدرجات النهائية فى الإنشاء.

ها هو القلم. قلم «الأستاذ». بينه وبين الورق الأبيض المصقول جاذبية خاصة. ماذا لو جربت؟ ماذا سوف يحدث؟!

التقط القلم بأصابع مرتعشة. تلفت حوله كمن يقدم على ارتكاب جريمة فى الخفاء. جلس على مقعد «الأستاذ» نزع غطاء القلم. وباندفاع جنونى أخذ يكتب.. ويكتب.. ملأ صفحات.. وصفحات.

أفاق بعد ساعات طويلة رتب الأوراق الكثيرة التى سودها بالحبر الأسود. أعد لنفسه فنجانًا من القهوة السادة وملأ كوبًا من الماء المثلج، وضعهما على نفس صينية «الأستاذ» وجلس إلى المكتب يرتشف الفنجان رشفة.. رشفة.

أمسك بالأوراق. قرأها كلها. أطلق عيناه فى فراغ الغرفة والسكون يحتويه ويحتوى المكان.. والأوراق والقلم. بعد لحظات مزق الأوراق وألقى بها إلى سلة المهملات. ووضع قلم «الأستاذ» فى مكانه.. على المكتب!

دعوة.. من القمر!

أطلقت فى هذا المساء سراح نفسى. تركت لعينى حرية السباحة فى الأفق البعيد. سمحت لهذه الروح الحبيسة أن تنطلق وللأنفاس المكتومة أن تخترق الرئتين.. وتخرج!

تذكرتك.. بل استدعيتك، فذكراك لا تغادر فكرى، وحنينى إليك لا يفارق روحى.

لا أدرى كيف قفزت الفكرة المجنونة إلى خاطرى؟! أن أستدعيك الآن. أن أراك بعينى، وألمسك بيدى، وأشم رائحتك!

وبدأت.. ألملم خيوط الذكرى البعيدة، أشدها بفرحة، أجدنى

بعد لحظات أستجمع تفاصيل وجهك، ملامحك، تطل على نظراتك وتلوح لى إيماءاتك.. وفجأة.. يتجمد صوتك، أسمع همساتك.. ثم تعلو الهمسات فأمتلئ بصوتك الشجى.. الحنون بنبرته القوية ودفئه المشع.

كنت وحدى مع السماء وليلها ونجومها. والآن.. الآن أصبحت أنا.. وأنت.. والسماء.. انطلقت روحى إلى هناك تبحث عن توأمها الغائب.. الحاضر. شدها هذا الخيط الخفى الذى يجمعهما.. خيط الوصل.

بدأ المجال المغناطيسى المحيط بى يهتز.. يضطرب. أحسست بقدومك رويدًا.. رويدًا. بخطواتك تقترب بثبات وثقة. وفى لحظات تحتوى المكان والزمان.. وتحتوينى!

فى لحظات سيطر حضورك وطغى. فأصبحنا أنا وأنت والسماء.. يؤنسنا هذا الضوء المتلألئ بنجومه وسط ظلمة السماء.. ضوء القمر!

الشهر فى تلك الليلة فى منتصفه.. والقمر فى كامل جماله وروعته. النجوم تتناثر فى خلفية المشهد السماوى البديع. ونحن.. أنا وأنت معًا بعد غيبة طويلة فى ذلك المساء الغريب!

دعوتك للحديث، أوحشنى هذا الصوت الحبيب. تمنيت أن أسمعك، لم تخذلنى، اجتاح صوتك الفضاء من حولى، تسلل شجنه العذب، ليوقظ الدنيا من نومها. ويدعو البشر للحب والحياة.

والآن.. أنت هنا. يزداد حضورك قوة، ويخترق صوتك كيانى. تفوح رائحتك لتملأ رئتىّ بهواء الحياة. تتلامس راحتانا فتنطلق شرارة الدفء تسرى بخدرها فى مسامى.

وبدأ الحوار!

لم نتعاتب.. لم نتساءل لماذا كان ما كان؟ ولا لماذا افترقنا.

أحسست أننا لم نفترق لحظة واحدة. وأننا كنا معًا بالأمس.. وأول أمس. وأول.. أول أمس. وأن حديثنا لم ينقطع، وحوارنا لم يتوقف!

فجأة انطلقت صديقتنا المشتركة تشدو بصوتها الذهبى.. كأنها اختارت أن تشاركنا ذلك المساء العجيب. جاءتنا تغنى لنا، أنا وأنت.. والقمر. سمعناها تردد فى تجلٍ «نحن والقمر جيران».

آه.. كم كان صوتها شجيًا!

اخترق الصوت عمق أحاسيسنا ليلامس كل ذكرى جميلة.

تثاءبت السماء. وبدأت تطفئ أنوارها رويدًا.. رويدًا، لتستعد لاستقبال أول خيط ينبثق من خيوط الشمس.

اعترانى قلق مفاجئ.. مع اقتراب موعد الرحيل. إذن.. سنفترق. الآن. سنعود من حيث جئنا! كاد الحزن يزحف إلى أعماقى لكن.. لكنى فجأة سمعت صوت إحساسى

يقول: لا.. لا تحزنى.. ولا تخافى فما حدث الليلة.. سوف يحدث مرة.. ومرات.

نظرت إلى القمر.. فرأيته يبتسم ابتسامة ودودًا وكأنه يؤكد لى أن دعوته لنا الليلة.. لن تكون الأخيرة.. وأنه قطعًا لن يضن علينا بدعوة أخرى. ولن تضيق السماء باستضافتنا. لن تعجز روحى عن التحليق بحثًا عن توأمها. تلبية لدعوة القمر!

عندما أشرق نور الفجر.. ودعتك. لم أكن خائفة أو قلقة من المستقبل ولا المجهول. انتزع حضورك القوى فى تلك الليلة كل هذا.

ومنذ كان.. ما كان. منذ دعانا القمر إلى السهر فى حضرته غادرنى القلق، وملأنى اليقين بأننا.. لن نفترق!

لاتسرقوا.. حلمى الجميل!

لا تطفئوا شعاع الضوء الوحيد فى حياتى.. لا تنزعوا الأمل الذى أعيش له.. وأعيش به.. لا تطلبوا منى تجاوز الحلم.. فهو أكبر من أن أتجاوزه.. لا تقولوا إن الزمن كفيل بأقوى الآلام.. فسنوات العمر.. وما بعد العمر لن تمحو أجمل ذكرى فى حياتى.. ولن تخنق أغلى حب، حفر بين ثنايا قلبى، لا تسرقوا حلمى الجميل!

اهتزت مشاعر القاضى وهو يستمع إلى مرافعة هذه السيدة.. فقد خرجت كلماتها مفعمة بالإحساس.. وارتفعت نبرات صوتها المشحون بالانفعال ليتسلل بسرعة إلى قلوب كل الحاضرين بقاعة المحكمة..

كانت قد طلبت إلى هيئة المحكمة أن تسمح لها بالدفاع بنفسها فى قضيتها أو بالأدق .. فى القضية المرفوعة ضد زوجها .. ورفضت أن توكل محاميًا يدافع عنه .. أو بالأحرى عنهم !

◆◆◆

طلب القاضى من السيدة أن تكمل مرافعتها .. جففت دموعها ، واستجمعت أفكارها ، وحاولت ترتيب أحداث قصتها حتى لا يفلت منها شىء .. وبدأت فى روايتها والكل منصت باهتمام شديد .

قالت : خمسة عشر عامًا وأنا متعطشة للأمومة .. مستعدة لأن أضحى بأى شىء حتى يتحقق الأمل .. متحمسة لكل محاولة للوصول إلى الهدف .. مهما كانت مخاطرها !

خمسة عشر عامًا قضيتها مع العذاب .. تتقاذفنى موجات الأمل ثم اليأس ثم الأمل مرة أخرى .. تمزقنى .. كلما اقنعت نفسى بالاستسلام والرضا بإرادة الله وحكم القدر ، تيقظت كل أحاسيس التمرد داخلى لابحث وأحاول من جديد !

خمسة عشر عامًا .. أجمع كل معلومة طبية تخص عقدة حياتى أو تتصل بها من بعيد أو قريب .. أملأ فهرستى .. أدون على صفحاته أرقام هواتف وعناوين كبار أطباء النساء ، وخبراء علاج العقم .. أتتبع كل خبر تنشره صحيفة عن حضور طبيب عالمى فى أمراض النساء .. ألهث لتحديد موعد فى قائمة المريضات اللاتى يحلمن بالأمل !

خمسة عشر عامًا .. أعيش فى ضباب .. سراب .. خمسة عشر عامًا أتمسك بأى طيف يلوح فى الأفق .. أتشبث .

قاطعها القاضى .. قائلًا : اختصرى من فضلك .. نريد أن نعرف باقى الحكاية .

وأكملت قائلة : أكد لى الأطباء بعد رحلتى الطويلة .. أنه وبكل صراحة .. لا أمل .. ابتلعت صدمتى التى كانت فى مرارة العلقم وعشت شهورًا فى جحيم لا يطاق وعذاب لا يحتمل .. ثم فجأة .. بزغ أمل جديد فى قلبى .. صارحت به زوجى على الفور .. لماذا لا نتبنى طفلًا من إحدى المؤسسات الاجتماعية .. ونجعله ابنًا لنا ؟!

بعد محاولات دؤوب .. لحوح .. وافق زوجى .. وطالبنى بأن أقوم بمهمة البحث عن الطفل المناسب .. وحذرنى قائلًا : «ستكونين الوحيدة التى تتحمل مسئولية هذا القرار الخطير» .

جففت دموعى .. ورحت أبحث عن كل المؤسسات الاجتماعية بعد أن دب الحماس فى أوصالى .. فلم أشعر بالتعب من كثرة الزيارات والجولات .. وانتظرت حتى يخفق قلبى حنانًا لأى منهم . مضت عدة أسابيع لم أشعر خلالها بما كنت أبحث عنه .. وبدأ الاكتئاب يتسلل إلى نفسى .. حتى كان هذا اليوم !

ونكمل السيدة الباكية حكايتها .. رأينه يرقد فى أحد الأسرة

المعدة للصغار الرضّع.. كان يبكى بشدة.. أحسست بصوته يخترق قلبى.. فاتجهت نحوه وشعرت وكأن عينيه تناديانى تستغيثان بى.. تتوسلان إلىّ!

وفى لحظة كان القرار.. نعم إنه هو.. الإبن الذى ظل فى قلبى حبًا مجهولًا قبل أن أراه.. ومشاعر الأمومة المجنونة التى اعتملت داخلى قبل أن أعيشها..

وطلبت من الاخصائية الاجتماعية أن تنهى الاجراءات بأقصى سرعة.. وتمنيت لو أستطيع أن أحمله وأغادر المكان فى الحال إلى البيت الذى نويت أن أجعله واحته التى يعيش فيها الأمان والسلام.. وينعم بطعم الدفء ويعرف معنى الإحساس بالحب الحقيقى.

وتنساب الدموع من عينى السيدة الحزينة فى هدوء وتواصل حكايتها:

ـ بدأت مع ابنى الذى تفجرت معه ينابيع أمومتى.. وزوجى الذى أحب الولد من أول لحظة وشعر كأنه بالفعل ابنه.. ومن صلبه، بدأنا ثلاثتنا حياة كانت أقرب إلى الحلم.. كان (...) هو محور دنيانا.. جعل لأيامنا، معنى ووضع لحياتنا هدفًا.. كان الشجيرة الجميلة التى تنمو أمامنا كل يوم.. فيعلو جذعها ويشتد.. وتنمو ظلالها وتمتد.. كبر الولد.. ووصل إلى الصف الثانى الابتدائى بمدرسة من أحسن مدارس مصر.. ووهبه الله

ذكاء متقدًا.. وبث فى روحه خلقًا دمثًا وقبولًا غريبًا يجعل كل من يراه يحبه من أول لحظة.

وتتوقف قليلًا ثم تعاود الحديث: ولكن يبدو أن لكل حلم نهاية.. والإنسان لا يستطيع أن يعيش الجنة على الأرض..

(وانخرطت السيدة فى نوبة من البكاء..)

مرت لحظات.. استجمعت فيها أعصابها.. لتكمل.. مرافعتها.

سيدى القاضى.. إن القضية المنظورة أمامكم الآن للطعن فى نسب ابنى لوالده.. والتى رفعها شقيق زوجى عليه.. لهى نموذج مجسد للحقد وما يفعله بحياة البشر.. لقد استكثر علينا هذا الشقيق السعادة التى بدأت تظلل حياتنا.. والفرحة التى غابت عن قلوبنا كثيرًا وها هى ذى تطرق بابنا أخيرًا.. فلم يرضه أن يرى العيون المبللة بالدموع تلمع بالرضا والقناعة.. ففعل ما فعل!

لم يخش أن يدمر قلوبًا ثلاثة، قلبى المجروح، وقلب زوجى، وقلب هذا البريء، الذى لم يقترف ذنبًا حتى يجنى هذا الشقاء الذى ينتظره إذا حكم عليه القدر أن يكون بلا هوية.. مجهول النسب!

قارئة الفنجان!

فى لحظة قررت أن تمسك بالقلم والورق.. وتكتب.. أحسّت وكأن اعصارًا من مشاعر القلق والخوف يكاد يحتويها بلا رحمة.

وشعرت بحاجة ملحة لأن تلقى بكل أحزانها وآلامها على الورق.. وأصرت أن تفضى ـ أخيرًا ـ بما تحملته وحدها طويلًا وناءت بأثقاله.. إلى هذا الصديق.. الذى اهتدت إليه بعد طول معاناة.

وجلست تتحدث إلى القلم والأوراق.. لتجد فيضًا من المشاعر يتدفق فى سطور أشبه بكائنات حيّة تتكلم وتتحرك..

تصرخ وتتألم.. ولأول مرة منذ عامين وجدت نفسها على استعداد لمواجهة طالما حاولت الهروب منها.. وقررت أن تخوض هذه المواجهة القاسية.. مع النفس!!

◆◆◆

تتابعت سطورها فى انسياب الصدق والتلقائية.. كتبت تقول.. «هل تعرفون طعم الألم؟! أكاد أسمعكم جميعًا تقولون: نعم عرفناه! ولكم الحق فمساحة الألم فى حياتنا جميعًا.. نحن بنى البشر.. هى المساحة الأكبر.. هى الخلفية الواسعة التى تحتل معظم الصورة.. والسعادة.. أو لحظات السعادة فيها هى الخطوط الرفيعة والألوان الجميلة التى يشاء الخالق عز وجل أن يكسر بها قتامة الصورة!

ولذلك تشع أحيانًا السعادة فى أيامنا.. فتكون كالزهرة الجميلة قصيرة العمر.. أو ينفذ من بين خطوط اللوحة بريق مبهر سرعان ما ينطفئ!

سأروى لكم قصتى عسى أن تكون عبرة لغيرى.. فأنا الآن أشعر بالنهاية.. نهايتى كإنسانة.. نهايتى كشابة فى ربيع العمر.. ونهاية لأمومتى التى عشت أحلم بها، ولكن كان قدرى أن أهدم بيدى حلم حياتى عندما أوشك أن يتحقق!!

لن أقول إننى هربت إلى هذه البئر السحيقة بإرادتى.. أبدًا.. أقسم بالله العظيم.. إننى لم أكن السبب.. لم أتقدم بقدمى إلى الطريق المسدود، بل دعتنى إليه إنسانة تجردت من إنسانيتها

وفقدت الحد الأدنى من الضمير، وأصبح الناس فى نظرها أدوات تستخدمهم بأحقر الوسائل من أجل المكسب الوفير!!

إنها حكايتى.. سأرويها لكم وأترككم تحكمون.. كنت أنا وأختى طالبتين بالجامعة الأمريكية من عائلة ميسورة. أبونا ثرى يعمل فى التجارة.. فتح الله ـ سبحانه ـ عليه باب الرزق من أوسع أبوابه.

كنا نعيش فى سعادة.. متفوقتان فى دراستنا.. وهبنا الله قدرًا عاليًا من الجمال.. نعيش فى رغد من العيش.. لا نتمنى شيئًا إلّا ويحققه لنا والدنا الحبيب.

وفى أحد الأيام.. وكان يومًا أسود.. قالت لنا إحدى صديقاتنا «هل تقرآن الفنجان؟ أعرف سيدة بارعة.. تعرف كل شىء.. ماذا لو جربناها؟».

◆◆◆

كانت دعابة.. أو هكذا اعتبرناها أنا وأختى الصغيرة.. لم أشأ أن أخبر زوجى بذلك حتى لا أتعرض للسخرية منه لهذا التفكير المتخلف والمعتقدات العجيبة التى لا يجب أن تؤمن بها إنسانة نالت قسطًا وافرًا من التعليم.

وللحق أقول لكم إننى ذهبت من باب الفضول وتضييع الوقت فى شىء مثير ومسل! وذهبت معى أختى الصغيرة.. وصديقتنا صاحبة الاقتراح.. استقبلتنا «قارئة الفنجان».. وكانت سيدة تعدت الخمسين بقليل.. وقامت لعمل فنجانى..

شربناهما .. وشكرنا السيدة على قهوتها المضبوطة .. فقد كانت بالفعل مختلفة .. شعرنا بعد أن شربناها بتيقظ وصفاء ذهنى عجيب .. وتفجرت رغبتنا فى السهر والحديث حتى الصباح !

وبدأت تقرأ السيدة ذات النظرات النافذة الفاحصة ـ الفنجان لى ، لأختى الصغيرة ولصديقتنا أيضًا .. واستمتعنا بتنبؤاتها التى تزف إلينا أن أحلامًا نتمناها سوف تتحقق .. وأمورًا صعبة فى طريقها للحل .. وغادرنا المنزل ونحن فى قمة السعادة والنشوة ..

◆◆◆

فى الصباح استيقظت .. وكذلك أختى على صداع غريب يكاد يمزق رأسينا .. تناولنا القهوة لعلها تخفف من وطأة هذا المفترس الذى يعربد داخلنا بلا رحمة .. ولكن .. لم تكن هذه القهوة مثل قهوة الأمس .. وبدأت أشعر بالصداع يزداد .. ويزداد .. وكأنه قد أعلن حالة من التحدى والعناد لقهوة منزلنا .. طلبا لقهوة « قارئة الفنجان » !

وفعلًا ذهبنا إلى السيدة وطلبنا منها فنجان القهوة « العجيب » الذى له مفعول السحر ! وابتسمت السيدة لتكشف عن أسنان صفراء قذرة .. توحى بعدم الارتياح .. ونظرة ينبعث منها الخبث والمكر .. تسللت نظراتها إلى إحساسى فشعرت بقشعريرة فى جسدى اشمئزازًا منها .. ولكنى حاولت أن أطرد

هذا الشعور عن نفسى وأقول « لا تكونى ظنانة .. لا تظلمى الناس » ..

وتكررت الزيارات من أجل القهوة العجيبة .. وقراءة الفنجان .. وازددت وأختى ارتباطًا بهذه السيدة التى لم نشعر أبدًا بالارتياح لها .. ولكن حاجتنا إلى قهوتها كانت أقوى من كل شىء !

◆◆◆

وفجأة فجرت السيدة الحقيرة قنبلتها المدمرة !! قالت لنا لم أعد أستطيع أن أشترى لكما القهوة « العجيبة » .. قالتها بسخرية واستهزاء ..

شعرنا بالحرج الشديد .. وفتحت كلانا حقيبة يدها لتخرج للسيدة الماكرة بعض الورقات المالية .. حوالى خمسين جنيها أعطيناها إياها لنفاجأ بها تقذف إلينا بالفلوس .. وتطلق ضحكة هيستيرية عالية .. وتقول لنا ببجاحة ووقاحة شديدتين .. « أرموا الفلوس دى فى الزبالة » !!

أفزعتنا كلماتها السوقية وتساءلنا بدهشة ممزوجة بالفزع .. إذن كم تريدين ؟ فقالت .. الكثير .. فما تشربونه ثمنه غال جدًا .

وعرفنا من يومها أن أقدامنا قد انزلقت بالفعل .. ودون أن

ندرى أصبحنا مدمنات.. نحن بنات الحسب والنسب.. صرنا مدمنات!!

◆◆◆

وبدأت الرحلة الصعبة.. وكانت بكل المقاييس شاقة ومريرة.. قررنا الامتناع فورًا عن زيارة هذه الملعونة.. وكم كان هذا القرار حلمًا بعيد المنال!!

لم نكن ندرك بعد معنى العبودية.. نعم.. إنها عبودية الإدمان.. وكم كانت قاسية.. متجبرة.. وظللنا نتعذب بهذا الذل حتى نفدت كل أموالنا أنا وأختى.. وبدأت طلباتنا تزيد.. فشك والدنا فى الزيادة الغريبة فى طلبنا للفلوس..

فى يوم من الأيام فوجئنا بوالدنا فى وجهينا.. ويطلب توضيحًا للحالة الغريبة التى أصبحنا عليها أنا وأختى.. طلب مبالغ ضخمة بصفة مستمرة.. ذبول فى وجهينا بعد أن كنا متوردتين دائمًا.. إهمال فى الدراسة.. عدم الرغبة فى مشاركة أبوينا فى أى مناسبة اجتماعية أو الخروج فى أى نزهة عائلية.. بل كل خروجنا معًا وتحيطه هالة من الغموض!

وتحت إصرار والدنا.. صارحناه والبكاء يغطى وجهينا.. ابتلع الصدمة فى قوة.. وقرر أن يعالجنا على الفور.. فأدخلنا مصحات هنا ومصحات فى الخارج.. وكانت المصيبة أنه كلما خرجنا من مصحة تهاوت إرادتنا أمام جبروت المخدر.. فعدنا

إليه من جديد.. وأدركنا أن القهوة اللعينة لم تقض فقط على حياتنا.. بل هزمت ارادتنا وأفقدتنا آدميتنا.. فأصبحنا مسلوبتى الإرادة.. فاقدتى القدرة على التفكير!

وفجأة.. أحسست بشىء يتحرك فى أحشائى.. لم أتصور فى البداية أنه الحلم الذى عشت أتوق إلى تحقيقه منذ تزوجت قبل ثلاث سنوات.. هل فعلًا سأصبح أمًا؟ وذهبت إلى الطبيب.. الذى زف إلىّ الخبر.

عشرات الأسئلة تآمرت على رأسى المتعب.. كيف سيتكون هذا الوليد.. هل سيتغذى من دمائى التى أصبحت ملوثة بالمخدر اللعين؟! هل سيولد مشوّهًا؟ لم أنم ليلتها.. افترستنى مخاوفى بلا رحمة ليس من أجلى.. فقد ضعت وانتهيت.. ولكن من أجل هذا المسكين الذى أحببته قبل أن أراه!

وبينما يتصارع كل هذا داخلى.. شعرت فجأة بقوة غريبة تعترينى.. قوة تتحدى وتحارب أى شىء من أجل هذا الوليد الذى لم ير النور بعد.. وقررت أن أشفى من إدمانى وحدى بدون مضحة.. وخضت الحرب الشرسة.. خضتها بسلاح واحد.. هو أمومتى.. التى طالما حلمت بها.. وعندما وجدتها أخيرًا.. أكاد أدمرها بيدى!

لن أقول.. ولن أصف أى عذاب هذا الذى كابدته.. ولكن

كل ما أتمناه أن أصمد حتى يخرج وليدى إلى النور . أربعة شهور الآن وأنا أقاوم هذا الشر اللعين من أجل عيون طفلى الذى لم أره بعد .. باق من الزمن خمسة أشهر أخرى .. وأملى كبير فى خالق الكون .. أن يزودنى بقوة من عنده لأمضى فى حربى هذه .. وتنتصر أمومتى على - عدو حياتى - إدمانى !!

مرض اسمه "الحب"!

« أنت .. أين أنت ؟! أفتش عنك فى كل مكان .. فلا أجدك إلا فى جذور نفسى ! » .

كتب هذه العبارة على ورقة بيضاء وجال بنظره فى الأفق يسترجع القصة من بدايتها . كيف كان لقاؤهما الأول . كيف التقت عيونهما بتأثير مغناطيسى غريب . كيف حدثت الشرارة الأولى .. وكان الحب !

◆◆◆

غاص فى تفكيره يحاول فك طلاسم هذه الشخصية الغريبة . ويفهم أيضًا غرائبه هو شخصيًا . فبقدر ما كان يعذبه غموضها

وعدم وضوح مشاعرها تجاهه .. بقدر ما كانت تتملكه الدهشة وهو يرى نفسه مستسلمًا تمامًا لتقلباتها . لا يملك الثبات على قرار بشأن حسم علاقته بها إذا لاحت منها أية بادرة من بعيد بأنها فعلًا تحبه !

كان موقفًا جديدًا عليه تمامًا ربما كان لأول مرة فى حياته يذعن لرغبة إنسان مهما تعارضت مع رغبته . وكأنه تنازل راضيًا عن إرادته لتلك الحبيبة الغريبة . كل ما كان يؤلمه هو ذلك الضعف الشديد الذى فشل فى التخلص منه تجاهها . والمشكلة عنده أنه لم يعرف هذه المشاعر من قبل . كان دائمًا قويًا .. يملك إرادته ولا يعرف معنى للضعف الإنسانى !

حاول أن ينساها ، سافر .. قطع كل اتصال بها . كان يكتفى بأن يسمع أخبارها ويطمئن عليها من بعيد . ولكن الغريب أنها كانت تسارع بالاتصال به إذا ما تأكدت أنه فى طريقه إلى نسيانها .. أو أنها سوف تصبح لديه مجرد ذكرى جميلة .. أليمة !

كانت غريبة فعلًا . كأنها تستعذب أن تراه معذبًا فى حبها ولا يريحها أن يهدأ هو وينصرف إلى حياته بدونها بعد أن اضطرته لذلك .

كثيرًا ما أرهقه التفكير وأضناه البحث عن إجابة لسؤاله : لماذا تفعل بى هذا ؟ إذا كانت لا تريدنى حقًا فقد احترمت رغبتها

هذه برغم أنها لم تصرح بها .. وابتعدت . ثم .. ثم تعود مرة أخرى لتعبر عن احتياجها لى وحبها الحقيقى الذى لا يقبل الجدل !

أعود إلى نفسى .. أحاسبها .. أقول .. ربما أنا مريض بالوهم .. وهم الحب .. أو مرض الحب ! وأتذكر أبيات الشاعر «نزار قبانى» : «الحب فى الأرض نوع من تخيلنا .. لو لم نجده عليها لاخترعناه» . وأغوص فى ذكرياتى معها فأحتار أكثر .. وأتعذب أكثر .. فبيننا لحظات عشناها كأسطورة . هذا لا يمكن أن يكون وهمًا فقد لمسته بكيانى ووجدانى ووجودى . بيننا أيام وليالى قلنا فيها بصوت واحد : إن هذه هى الجنة ! بيننا امتزاج روحين وانسجام فكرين والتقاء حبيبين . فكيف .. أفسر تصرفاتها ، كيف أجد تبريرًا لتقلباتها وعواصف مشاعرها التى لا تهدأ !

ينتصر عقلى أحيانًا .. ويقول لا : أنا لن أعود إليها .. هذه العابثة بمشاعرى . اللاهية بأغلى ما أملك .. أحاسيسى ونبض قلبى . أقنع بصوت عقلى .

تمر أيام بدونها بلا طعم .. ولا معنى .. يمتلئ عقلى بالضجيج والمناقشات التى لا تنتهى .. أعمل .. أنتزع نفسى من محيطها . أشعر أحيانًا أننى نجحت وأن وجودها داخلى تحول إلى ظلال من الذكرى فى طريقها إلى الخفوت والتلاشى .

وتمضى بى الأيام لأجدها مرة أخرى تخرج من داخلى كعملاق واثق.. تطل على.. تتفحصنى بشماتة وتقول لى: ها أنذا لا أزال حاضرة داخلك.. لم أتلاش كما ظننت.. ولم أتحول إلى طيف باهت بعيد كما تمنيت وتصورت. أنا هنا داخلك شمس شديدة الحضور. شعاعها يخلف العين والقلب والوجدان.

وسط دهشتى.. والمخاض العنيف الذى يعتصرنى من الداخل أفاجأ بها على الطرف الآخر من التليفون تطلبنى. يخفق قلبى اضطرابًا.. أسرع إلى السماعة.. أخطفها بلهفة الدنيا. أحتضنها بكلتا كفىّ.. يأتينى صوتها فأحس بنبض عروقى يعزف موسيقى السعادة. أتلعثم.. أتردد.. تقول هى: أوحشتنى.. أريد أن أراك. ينتفض قلبى فرحًا. أقبل على الفور أسألها الموعد والمكان. تجيبنى. أضع سماعة التليفون. لأجد صوتًا داخليًا يعلو.. يهاجمنى بشدة: ماذا فعلت؟

أغلق صوت الضمير. صوت نفسى. أسلم قدماى للريح. أسير مهزومًا فى الطريق. قلبى يبكى حالى.. ويتلهف لرؤيتها فى آن معًا!! أشعر بالإعياء الشديد. إننى مريض.. مؤكد إننى مريض. أحس بتصدع داخلى. أريد أن.... ماذا أريد؟!

الحياة مرة أخرى!

هذه الطفلة ولدت مرتين.. فى يومين متتاليين!!

فبعد أن قذف بها رحم أمها إلى الدنيا بيوم واحد.. كان كل شىء ينبئ، بل يكاد يجزم بأن عمر هذه الوليدة لن يزيد على يوم واحد!

وعلى عكس ما توقع الجميع، وخلاف ما كان لابد أن يحدث، فقد ولدت «أميرة» مرة أخرى.. وكأن سياجًا خفيًا قد طوقها ليحجب عنها نيران هذا اليوم المشهود فى حياة القرية.. عندما

شب حريق مجنون التهم جميع البشر هناك.. وكل الأشياء!
وتوقفت ألسنة اللهب.. لم تقترب من «أميرة».. ولا من المصحف الصغير الذى وضعته أمها إلى جوارها يوم ولادتها!

◆◆◆

استولت الدهشة على ملامح جميع رجال الإنقاذ الذين كانوا هناك، فقد كان منظر الطفلة الرضيعة وهى حية ترزق.. وسماع صوت صراخها يخترق الصمت.. أغرب من أى خيال!

تأملوا كثيرًا لون الجدران المتفحمة، وتسمرت عيونهم وهم يرون اللون يتغير فقط فى المساحة الصغيرة التى كانت ترقد الطفلة تحتها! فحصُوا الرضيعة التى وجدوها محاطة بلفة بيضاء وسط الأنقاض، ليحتلهم ذهول غريب.. وشعروا بأنهم بالفعل أمام معجزة إلهية.. بكل ما تحمله الجملة من معنى!

أين تذهب «أميرة»؟

كان هذا هو السؤال الذى تردد على ألسنة الجميع.. لقد رحل كل من لها فى هذه الدنيا بعد أن التهمتهم النيران! أمها.. أبوها.. وكل أخواتها حتى جيرانها! فلم يبق الحريق النهم أحدًا يمت لـ«أميرة» بصلة.. وكأنها جاءت إلى الحياة لترحل عنها كل خيوط الحب والحنان.. ويغيب كل الناس الذين كانوا فى استقبالها!

أبى القدر إلا أن تبقى هى.. هى وحدها.. لتواجه الحياة بكل قسوتها ورعونتها.. منذ اليوم الأول!!

◆◆◆

«قرية الأطفال الأيتام».. هذا هو المكان الذى اتفق عليه كل من أرقهم أمر هذه الطفلة، واهتم بقصتها الغريبة. فسلموها للقرية لتكون أصغر طفلة يستقبلها المسئولون بالقرية، وفى الوقت نفسه أصعب حالة تواجههم فبالاضافة إلى حاجتها إلى رعاية خاصة كرضيعة عمرها يوم واحد.. كانت أيضًا فى حاجة إلى علاج طويل لهذه الحروق التى طالت جسدها الضئيل.. وكان هذا العلاج من الصعب أن تتولاه أم «بديلة» فى قرية أطفال.. كانت الطفلة فى أمس الحاجة إلى أيد أم حقيقية.. لا تضج بالجهد الكبير الذى تطلبته الجروح المنتشرة فى جسد «أميرة» ولا تمل الساعات الطويلة التى تجلس فيها إلى الصغيرة تطبب.. وتعمل!

ويبدو أن المعجزة التى أنقذت «أميرة» من وحشية الحريق لتكون الوحيدة بين كل أهل القرية الباقية على قيد الحياة، لم تكن المعجزة الوحيدة فى حياتها، فقد كانت الأم البديلة «حنان» المكلفة برعاية عدد من الأطفال فى إحدى فيلات قرية الأطفال عزمت على ترك القرية.. بعد أن أحسّت بالاجهاد الشديد ولم

تعد حالتها الصحية تسمح برعاية الأطفال. وكانت قد تقدمت بالفعل إلى إدارة القرية بطلب استقالة.

وفى اليوم الذى وصلت فيه «أميرة» إلى قرية الأطفال.. يحملها مسئولون من المحافظة التى أتت منها.. كانت ماما «حنان» فى مكتب الإدارة ترجو المدير أن يعجّل بقبول استقالتها لأنها فى حاجة فعلية للراحة والعلاج.

لا تسألونى ماذا حدث.. أنا نفسى لا أعرف لماذا فعلت ما فعلت؟! كل ما أستطيع قوله اننى شعرت بقوة خفية تدب فى أعماقى عندما وقعت عيناى على وجه «أميرة». وشعرت وكأنها تناديني.. تستغيث بى.. تصرخ: راجية ابقَىْ معى.. أبقى معى يا ماما «حنان»!

هذا ما قالته ماما «حنان» بعد أن فاجأت الجميع بعدولها عن الاستقالة. وأخبرتهم بقرارها بالبقاء فى القرية، احتل الذهول جميع المسئولين عندما رأوها تتمسك بالطفلة الرضيعة.. ذات اليوم الواحد.. المصابة بحروق خطيرة.. تحتاج لعلاج طويل.. وصبر أيوب!

واستمرت «أميرة» تلقى بأسرارها الخفية كل يوم، بعد أن أصبحت أهم شخصية فى القرية، وأصغر طفلة فى القرية أيضًا. التف حولها كل أخوتها فى الأسرة البديلة لتعامل معاملة

«آخر العنقود». كل الحب.. كل العطف.. كل الحنان.. وكل التحيز أيضًا لـ«أميرة»!

◆◆◆

سنة الآن.. هى عمر «أميرة».. تفتحت الزهرة الصغيرة.. توردت وجنتاها بنفحات الحب الذى يبثه إياها جميع إخوتها فى قرية الأطفال.. واندملت جروح بشرتها لتصبح ملساء.. مشرقة بفعل جرعات الحنان المكثفة.. الفياضة من ماما «حنان»!..

وما تزال «أميرة».. ترسل بأسرار معجزتها الغامضة.. وتضيف إلى رصيد محبيها وخدامها المخلصين كل يوم.. ومنذ عادت إلى الحياة مرة أخرى.. تبعث الأمل والبهجة والحب فى كل من يعرفها..

وما يزال الناس حائرين.. يتساءلون عن سر معجزة «أميرة»!

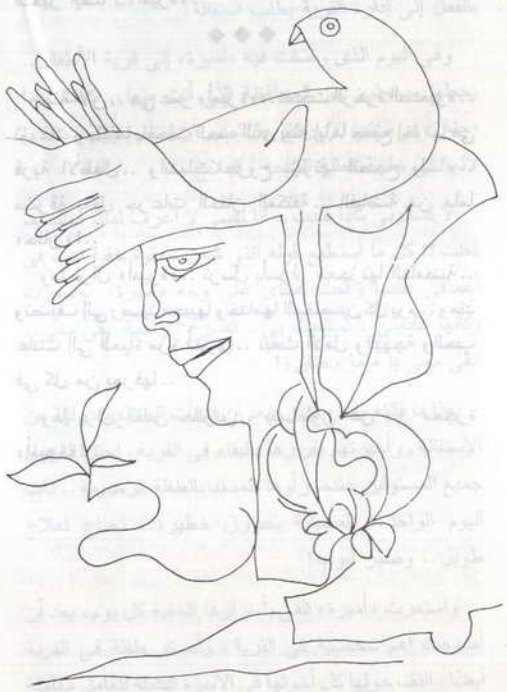

سأظل أبحث عنهما مهما طال الزمان !

سأرحل مرة.. ومرات. لن أتوقف.. ولن أكف عن الترحال. إحساس غامض يحتوينى.. يصرخ داخلى إنهما هناك.. فى بقعة ما على كوكب الأرض يتنفسان الحقيقة.. ويخلّدان أسطورة العشق عبر زمان لا مُنتهٍ.. ومكان لا يعرف الحدود !

من أنا ؟

معذرة.. لم أقدم لكم نفسى.. ولم أرو بعد حكايتى. فدعونى أبوح لكم بكل شىء الآن..

أنا بكل تواضع .. ملكة !

نعم ملكة .. ولكن مملكتى صغيرة عنوانها موقع حفرناه فى الكون الفسيح بين السماء والأرض. دستورها سطور كتبت بماء المحبة. قانونها حروف نقشت بدماء قلوب أضاءها الحب.

منذ قديم الأزل أعيش فى هذا الكون الجميل ومعى أفراد مملكتى. فضاؤنا الرحب يستوعب أحلامنا الممتدة بعرض السماء. تلك الأحلام تشبه النباتات المتسلقة .. تنمو من جذور قلوبنا لتتسلق السماوات البعيدة .. القصية.

تحلم بطائر الحب يشدو .. ينطلق بأجنحة قوية تهزم الرياح .. وتقطع الأميال. نحلم بهذا النور يضيء قلوب البشر فيبتلع ظلام الكراهية .. وينثر زهور الخير فى أرجاء الكوكب الأرضى.

قصتى ؟

ربما تحرك فضولكم الآن لتعرفوا قصة رحلتى الطويلة إلى الأرض. سأحكى لكم حالًا كل شىء.

كنت فى شبابى أعيش على كوكبكم .. كوكب الأرض. أحب البشر. عشت طائرًا سعيدًا انطلق كل صباح مع سرب الحمام من زملائى ثم نعود بعد جولة طويلة عبر السماء إلى عش صاحبنا الذى علمنا الطيران والعودة إلى العش. كانت إشاراته هى دليلنا وكانت بيننا وبينه لغة خاصة.

كنت سعيدة بهذه الحياة .. راضية بالرزق الحلال وبالانطلاق فى فضائى الرحب. حتى كان هذا اليوم! يوم لن أنساه ما حييت. انطلقت مع سرب الحمام. وبانشراح استقبلتنا نسمات الهواء الندية. كنت فى نشوة غريبة حتى أنى حلقت بعيدًا .. بعيدًا. وتركت السرب.

فى لحظة مجنونة أحسست بتوازنى يختل فجأة! ظللت أتأرجح فى السماء. أتوسل إلى الله أن أصل بسرعة إلى أقرب غصن شجرة .. أو إلى الأرض حيث الموت والنهاية. غبت .. ولم أدر نفسى إلا راقدة بين مجموعة من الحمام فى مكان بين السماء .. والأرض!

عندما أفقت لم أكن فى حالة تسمح لى بالكلام. بعد قليل تجمع الحمام حولى يحاول كل منهم أن يبثنى دفأه وحنانه .. وعرفت منهم القصة. كان اعتداء وحشيًا ارتكبه إنسان خلا قلبه من الحب. صوّب طلقة بندقيته إلىّ وابتسامة الظفر ترتسم فى عينيه انتظارًا للصيد الثمين.

لكن إرادة السماء شاءت ألا أصاب إصابة قاتلة. فقط فقدت أحد جناحىّ. وفتحت عينىّ لأجدنى وسط هؤلاء. كائنات تتنفس حبًا ورحمة. غمرونى بحنان نسيت معه أوجاعى واحتفظوا لى بجناحى المبتور .. فى صندوق صغير .. جميل!

قال لى الحمام الحنون: لا تحزنى .. فالله قادر على أن

يعوضك بجناح آخر. ولكننا نريد أن نخبرك بقرار اتخذناه بالإجماع وبقى أن تعرفيه.

قلت: وما هو القرار؟

قالوا لقد انتخبناك بالإجماع مليكة لمملكتنا.. مملكة الحب ولن نقبل بغيرك!

وهناك.. فى مملكة الحمام اندملت جراحى. كان بلسم المحبة شفائى. وكان الأمان الذى انغرس فى قلبى هو ماء الحياة الذى روانى. عاد إلىّ إحساسى بالجمال، وتسلل إلى نفسى بقوة فانطلقت من سجنها، وراحت تعلو وتعلو فى سماوات بعيدة.

وفى غروب يوم، بينما كانت الشمس تتوارى بين السحب الفضية فتشكل لوحة من الإبداع الإلهى الفريد، لمعت فى ذهنى فكرة مجنونة برقت أمامى فى السماء.. وراقت لى!

استدعيت أفراد مملكتى. أمرتهم أن يعلنوا حالة الطوارئ، يقسمون أنفسهم إلى مجموعات عمل ويستعدون للرحيل إلى كوكب الأرض فى مهمة عاجلة.

قلت لهم إنهم مرسلون للبحث عن أصدق محبّين. اثنان يجمعهما الصدق ويروى بذرة حبهما الوفاء والاخلاص. انسانان يؤمنان بالحب فى زمن حوصرت فيه العواطف وطغت الحسابات!

قالوا: لكنها مهمة صعبة يا مليكتنا.. بل قد تكون مستحيلة.. فقد لا نجدهما أبدًا!

قلت: لكنهما هناك.. فى بقعة ما على كوكب الأرض.

سوف أقيم لهما موكبًا عظيمًا على شرفهما.. نحيى فيه أجمل كائنين.. أما هديتهما.. فستكون أغلى وأثمن هدية..

قالوا: وما هى الهدية؟

قلت: أتذكرون ذلك الصندوق الصغير.. الجميل الذى حفظتم فيه منذ زمن بعيد جناحًا صغيرًا ينزف دماء وقد تساقطت بعض ريشاته. إنه يحوى أغلى ما أملك وسيكون هو الهدية. إنه ريش أبيض لجناح حمامة ذبحها منذ زمن صياد.. لا يعرف الحب!

حكاية أم صابر

هل يمكن أن تخرج فكرة رومانسية حالمة من رحم الحزن والمعاناة؟..

هل يملك بعض الناس هذه القدرة العجيبة على انتزاع خيط يمتزج فيه الجمال بالأمل ويستوحونه من موقف مأساوى.. شديد التعاسة؟.

هذه الأسئلة وغيرها تلاحقت على ذهنى وأنا أستمع إلى حكاية هذه المرأة الغريبة.. فقد شعرت فى حديثها وكأنها تنقلنى إلى مكان غير المكان.. وزمان غير الزمان.. وتخيلت أننى

التقيت وجهًا لوجه مع بطلة من بطلات (تشارلز ديكنز) الروائى العالمى الشهير.

◆◆◆

«كنا سبع بنات وأمى وأبى.. والدى كان يعمل فى شركات عبود باشا «زهرات» يعمل يومًا.. ويتوقف يومين أو ثلاثة.. كنت أكبر أخواتى وكان الحزن يمزقنى وأنا أراهنّ لا يجدن ما يطعمهن.. فكرت ما الذى أستطيع عمله.. ماذا أفعل لكى نعيش؟

وظلت الفكرة حائرة داخلى، تلازمنى بالليل والنهار.

وفى يوم رأيت جنازة تسير فى الشارع الذى نقطن به.. سرت وسط المشيعين دون هدى.. كنت محتاجة لأن أتوه وسط الزحام..

كانت الجنازة لعروس شابة.. سار وراءها كثيرون.. الأهل والأقارب وسكان الحى.. الكل مصدوم.. فالفقيدة شابة فى عمر الربيع.. البكاء والنحيب يخلع القلوب.. ازدانت خشبة العروس بالورد.. وكلما سار الركب تساقط الورد على أرضية الشارع..

وبحركة لا إرادية انحنيت إلى الأرض، وجدتنى أجمع الزهور المتساقطة، وأتجه إلى سلة على الرصيف، ألتقط

بعض العلب الفارغة وأشرد فى تأمل الناس والأشياء من حولى. أجد نفسى بلا تفكير أثبت الذى جمعته على حواف العلب، فتصبح جميلة، رائعة، أنتبه إلى ما صنعته فيعجبنى. ويضىء وجهى بابتسامة غابت عنه طويلًا لتزيح سحابة الحزن الطاغية التى كانت تعتريه منذ لحظات!

◆◆◆

أسير فى الطريق مبتهجة بما صنعته يداى، أجد نفسى أمام دكان فاكهى.. وتقفز إلى ذهنى فكرة.. لماذا لا أعرض العلب المزينة بالورود المنسقة فى شكل جميل على هذا الرجل الطيب، ربما أعجبته.. واشتراها منى.

أستجمع بصعوبة شجاعتى، وأحاول السيطرة على ضربات قلبى التى بدأت تدق بعنف وسرعة. اقتربت منه بخوف، أقول له بصوت مرتعش خافت:

- أريد أن أريك شيئًا.. هل تسمح لى بذلك؟

وتمتد يدى المرتعشة تحمل إلى الرجل العلب المزينة تهرب نظرات عينىّ من اللقاء بعينيه اللتين تتفحصاننى فى جدّة.

- هل تريد أن تشترى هذه العلب وتضعها ديكورًا فى الدكان؟

وتمضى لحظة يقلب فيها الرجل العلب بين يديه.. ثم يهز رأسه مقتنعًا بالفكرة.. ويقول:

- فكرة مش بطالة ..

ويضع يده فى صديرى الجلابية الفضفاضة .. ويخرج حافظة نقوده .. ويقول :

- حاخد الواحدة بقرش تعريفة .. موافقة ؟

يرقص قلبى .. معنى ذلك أننى سأمتلك الآن ثلاثة قروش صاغ مرة واحدة !!

ثلاثة قروش سنة ١٩٣٣ .. مبلغ كبير بالنسبة لأسرة بائسة .. معدمة .. القرش تعريفة يشترى ١٢ قطعة طعمية وبقرش صاغ تستطيع أن تشترى ٦ أرغفة !!

◆◆◆

كانت هذه نقطة البداية .. خيط الأمل الذى اخترق نسيج اليأس .. الذى كان مخيمًا فى قلبى وبدأت منذ ذلك اليوم أشق بأظافرى طريق الكفاح من أجل البقاء .. كان عمرى ١١ سنة .. وفى فترة بسيطة لم تتعد سنة .. تجاوزت شهرتى الحى الذى بدأت فيه حيث كنت أسكن مع أسرتى فى مينا البصل بالقبارى .. وبالتحديد حارة الجنابنية .. تجاوز اسمى وشهرتى هذا الحى الشعبى إلى الإسكندرية كلها فى أقل من عام .. فقد طورت بعد ذلك فكرتى البسيطة التى ولدت فى جنازة العروس !!

كنت أشترى ورقة الكوريشة .. وأجمع العلب الفارغة ..

وأشترى بعض السلك الرفيع .. وأصنع أشياء من ابتكارى : كُوش العرائس .. أباريق الفرح والسبوع .. عجلات الترماى فى شم النسيم .. سيارات الفرح .. والدراجات فى الأعياد ..

وتوسعت فى فنى الذى أصبح كل حياتى . فصنعت تيجان وفساتين الفرح .. وذاعت شهرتها ليس فى القاهرة وحدها ، بل فى كل البلاد العربية . فقد انتقلت إلى القاهرة وتزوجت وأقمت بزقاق الجباس .. بدرب البرابرة .

وأصبح الركن الذى أجلس به فى منزلى القديم بزقاق الجباس هو مملكتى الحقيقية . أشعر فعلًا أننى ملكة متوجة ، يحيط بى أفراد مملكتى الخاصة . الحرس والخدم فى هذه المملكة ليسوا أشخاصًا إنهم خيوطى الرفيعة ، وإبرى الدقيقة ، القماش الأبيض المنشى ، الخرز الأبيض ، ..والملون ، و .. الورود الصغيرة الجميلة .

أجلس فى مدخل شقتى .. أقصد مملكتى .. أغوص فى أشيائى مع خدمى وحشمى فى خيوطى وإبرى وخرزى ، أذوب معهم وفيهم أحركهم أشكلهم ، أصوغهم بروحى ، أبثهم أنفاسى وإحساسى .. فيتحول كل شىء إلى كائن حى أمامى . ويصبح ما أصنعه فى يدى عالمًا نابضًا حيًا ، وأحسه جزءًا منى لا ينفصل !

يسألنى الناس وهم مندهشون :

ـ كيف تبقين يا «أم صابر» فى هذه الشقة المتواضعة بعد كل ما حققت من شهرة وصلت إلى خارج مصر. وأصبحت يا «أم صابر» فنانة يأتيك بنات حواء من كل الأقطار العربية وأيضًا الأجنبية؟!

قلت لهم.. أننى أشعر بالاختناق عندما اضطر للذهاب إلى «المهندسين» لزيارة ابنى. فبيتى فى زقاق الجباس عندى هو القصر الكبير الذى لا أرى مكانًا يمكن أن يحتوينى غيره.

أما الشهرة.. فلا تهمنى. يكفينى أن كل بنت فى مصر تعرفنى.. وتتذكر أننى شاركتها فى أجمل أيام عمرها. بنات من كل المستويات من أصغر العائلات وأكبرها. كلهن ارتدين تاج الفرح من صنع يدى. وحملن باقة الزهور التى صممتها.

يكفينى أن كل المحلات الكبرى تأتى إلى هنا.. إلى هذا الزقاق الصغير.. زقاق الجباس لتشترى أعمالى، ثم تبيعها بأضعاف.. أضعاف ثمنها!

أتلفت حولى فأجد الدنيا جميلة. بقدر ما ضنت على فى بداية العمر.. بقدر ما عوضتنى وأغدقت فى العطاء.

أولادى.. أحبائى.. هدية الله إلى ثلاثة من الرجال وبنت واحدة. كلهم تعلموا فنى وحرفتى ويعملون معى. أشترى كتالوجات الموضة.. أقلبها حتى أتعرف أفكارهم الجديدة وابتكاراتهم. لكن بصراحة لا يعجبنى فيها شىء. وأرى ما

أصنعه أجمل بكثير. والسبب معروف هو أن ابتكارى وتصميماتى من عند ربنا. لم أتعلم ولم أنفذ خطوات كتالوج. بل أرى الرسم فى رأسى وتقوم أصابعى بالمهمة.

يقولون لى.. كفاك عملًا يا «أم صابر».. الحمد لله لم يعد ينقصك شىء والبركة فى أولادك يكملون المشوار. فأقول لهم: نصيحتكم لى معناها أن أودع الدنيا.. وأرحل.. فعملى هو حياتى.

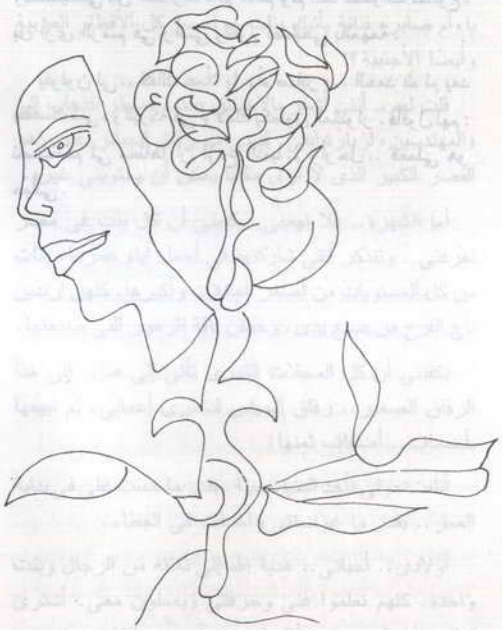

مع الأطلال

لم ينتظر حتى تشرق شمس اليوم التالى ليزور المكان الحبيب إلى قلبه . وضع حقيبة السفر ، واندفع على الفور تحت تأثير رغبة جارفة إلى مكان لقائهما المعتاد هذا المكان الذى ولد فيه من جديد يوم التقى بها لأول مرة .

خفت قدماه وهو يقطع الطريق فى لهفة .. اخترقت رغبته ظلام الليل وسكونه .. وغلب إحساسه هذا الصمت المتفجر فى الشوارع والميدان الفسيح بعد منتصف الليل .. والناس نيام .

لقد تعود فى كل مرة يعود فيها إلى وطنه الحبيب أن يكون

هذا المكان هو أول قبلة يتحرك فى اتجاهها، ويعيش فى رحابها لساعات طويلة وحده مع الذكريات..

◆◆◆

منذ أجبره جرح القلب على الهجرة، لم يستطع أن يمنع نفسه من زيارة الوطن الحبيب.. وبرغم أى ظروف واجهته لم يتوقف عامًا واحدًا عن الزيارة السنوية فى إجازاته، ولم يستبدل الوطن بأى مكان آخر على الأرض برغم رجيل الأحباب.. فقد كان وجوده فى موطن الذكريات هو ملجؤه الوحيد الدافئ وسط صقيع العالم.. وقسوته.

عشر سنوات مرت عليه فى الغربة.. نجح.. لمع اسمه. احتوته أضواء الشهرة وسهلت حياته مزايا النجاح وثماره. امتلك الفيلا والسيارة وزوجة أجنبية وأطفالًا لهم عيون ملونة وشعر كستنائى. بمقاييس الناس جميعًا. كان سعيدًا جدًا، ولكن شتان بين حكم الناس علينا وحكمنا نحن على أنفسنا!

فبرغم كل هذا النجاح والتوفيق فى حياته الجديدة فى الغربة، لم ينس يومًا أنه فقد أعظم شىء فى حياته. وحينما فقده تساوت أمامه كل الأشياء. كانت هى المعنى الجميل لحياته ووجوده. وكانت القلب الذى يحتوى كل آلامه.. والعقل الذى يستوعب طموحاته، ويتحمس معه لتحقيق أحلامه، كانت بالفعل دنياه.. ووطنه الصغير!

وفى لحظة كئيبة.. تعسة.. حزينة فقدها. خطفها الموت منه فى حادث سيارة. كانت زهرة فى ربيع العمر. مشرقة. متفائلة. حنونًا وكانت تحب الحياة.

شهور مرت عليه اقترب خلالها من الجنون.. أو الكفر.

أى قدر هذا الذى يعصف بحلم العمر فى لحظة وأى اختيار ؟!

أظلم قلبه. وانكسر وكاد ينهار بالكامل لولا شعاع من إيمان اخترق ظلمة قلبه. لتحتله السكينة فجأة بعد نوبات من الجنون والهيستريا والهذيان..

وكان قرارة نهائيًا، سأسافر، لابد أن أرحل بعيدًا عن وطنى الحزين، لابد أن أفارق موطن الحب والألم.. بعد أن ضاع الأمل. لابد أن أحمل أحزانى وأرحل بعيدًا ربما تندمل جروح القلب الكسير!

ومنذ سافر لم يقطع عادته مرة واحدة، فى كل عام يحمل حقائبه ويأتى لزيارة وطنه الكبير ووطنه الصغير. وفى كل مرة تكون قبلته الأولى إليها، إلى حيث المكان الذى خفق به لأول مرة قلباهما بالحب العظيم. وكان يجلس على نفس المائدة التى كانا يجلسان عليها، ويستقبله نفس الجرسونات بالتحية والترحيب ونظرات تلمع بالدموع يتلقاها من عيونهم ويرد عليها

بنظرات أخرى.. تقول.. لا.. لن أنساها.. لن أنساها ما حييت!

يشرب الشاى، ثم القهوة بالضبط كما كانا يفعلان يتأمل المقاعد. الموائد. وجوه الجرسونات والزبائن. جدران المكان. كل شىء وكأنه يحتضن كل تفصيلة دقيقة عاشها معها. ويجتر الذكريات. أجمل ذكريات العمر. وأقساها!

ولكن هذه المرة كان هناك شىء مختلف.. احتله إحساس غامض يشده إلى موطن الذكريات. بدت صورتها أمامه واضحة. مشرقة وكأنها تتحدث إليه تناديه. فلم ينتظر حتى الصباح ليذهب إلى لقائه المعتاد معها، عبر الذكريات، شعر برغبة لم يستطع مقاومتها فى النزول فورًا إلى مأوى قلبه الحزين.

تسارعت خطواته. انطلقت قدماه فى شبه توثب تكاد ألا تلامسا الأرض. كان الصمت مخيمًا على كل شىء. والشوارع خاوية. واقترب من المكان. أحس بلهفة غريبة فى أن يصل بسرعة وكأنها بالفعل هناك تنتظره. واقترب أكثر وأكثر.

وفجأة تسمرت قدماه فى مكانهما عندما وقف وجهًا لوجه أمام قبلته الأولى، كاد يسقط منهارًا وهو يشاهد الفئوس فى أيدى العمال يهدمون بها جدران مأواه الوحيد. سألهم فى فزع: ماذا جرى؟ لماذا تحطمون أجمل مكان فى بلدى؟ لماذا

تهدمون ملجأى؟ قالوا له فى اندهاش بعد أن ظنوا أنه مجنون يهذى: إننا نهدم المكان القديم لنبنى آخر أكثر تطورًا. ماذا يضيرك فى هذا؟.

بكى الرجل كما لم يبك من قبل. أحس أن هذه الفئوس التى حطمت جدران المكان الذى احتضن ذكريات العمر. إنما حطمت آخر ما تبقى له فى هذا الوطن. واحتله إحساس غريب بالحزن واليأس والإحباط. وشعر أن حبيبته ماتت اليوم. مرة أخرى ماتت هذه المرة دون أن تترك له، حتى الأطلال!

وقرر أن يرحل إلى الغربة هذه المرة.. بلا عودة!

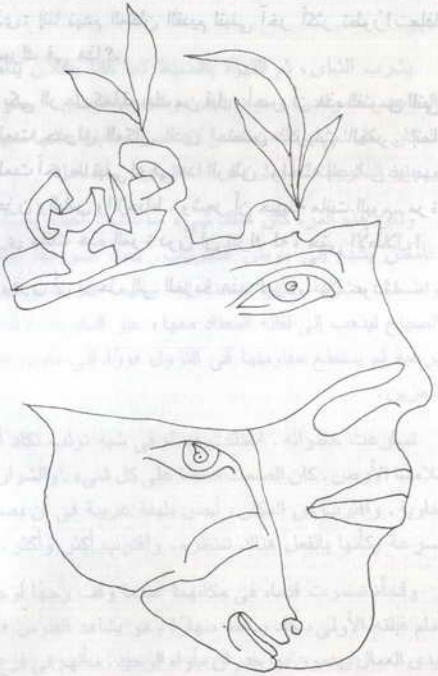

سفينة على الشاطئ الآخر

ملأتها رغبة مفاجئة فى الانطلاق .. فى الحب .. فى الحياة، نزلت إلى الشارع مبكرة .. كانت ما تزال تأخذ طريقها فى نعومة وحنان كأنها تهمس فى أذن الأرض، لتوقظ العالم النائم فى استسلام، وعندما استقرت الشمس على عرشها السماوى بكبرياء وثقة .. وأرسلت بأشعتها القوية النافذة، كانت الفكرة قد استقرت فى رأس نجلاء: «نعم .. لابد أن أعيش!».

لقد قطعت طريقًا طويلًا دون أن تشعر بالوقت .. كانت

نسمات هواء الصباح الندية تداعب وجهها الجميل وتحرك خصلات شعرها الأسود، فتزيدها إحساسًا بالحياة وإصرارًا على التشبث بحقها فى أن تحياها.

تسارعت خطواتها فى رشاقة وخفة.. وكأن السير لم يعد يكفيها إنها ترغب فى أن تطير، أن تنطلق بأقصى سرعة، أن تفجر هذه الطاقة المكتومة من سنوات.. إنها تشعر الآن.. فعلًا.. أن قدميها لا تكادان تلامسان الأرض، فقد أطلقت سراح هاتين القدمين، وفكت أسر هذه الروح الحبيسة داخلها منذ زمن!

هل كنت محتاجة لكل هذه السنين حتى أكتشف أننى سجينة؟! هل يمكن أن تطول الرحلة بإنسان وتمتد ليصل فى نهايتها إلى محطة لم يقصدها أو ترسو السفينة على الشاطئ المقبل لأحلامنا وآمالنا.. فنتفرج عليها دون أن تصل إليها أيدينا أو تطأ أرضها أقدامنا؟! منتهى القسوة!!.

تسللت ملامح الحزن إلى وجهها وارتسمت خطوط الأسى وظلال الشجن وهى تبحر داخل نفسها، وتتذكر أيام الضعف وسنوات السجن الطويلة التى مارست فيها دور السجينة وأيضًا دور السجانة.. قذفت عيناها بدموع متسارعة.. متتابعة سرعان ما مسحتها.. وكأنها دفقة أشجان كان لابد أن تخرج سريعًا ثم يمحى أثرها فى الحال، فمن اليوم لا مكان للدموع

فى حياتها.. سوف تبتسم.. سوف تملأ الدنيا بحبها للحياة.. وسوف تجبر الأيام السابقة، الأيام الحزينة على الاعتذار.. بل لن يكفيها الاعتذار.. سوف تصر على أن تنسحب هذه الأيام بكل أوجاعها.. بكل ظلالها من حياتها بدون قيد أو شرط!

◆◆◆

أحست أن خطواتها تباطأت.. وروحها تثاقلت مع ذكريات الأيام الحزينة.. فأسرعت مرة أخرى فى عزم وكأنها تتحدى أى تخاذل يشدها إلى اعتقالها مرة أخرى فى سجن الأحزان.. فلا أحزان بعد اليوم!

أعادت السؤال مرة أخرى.. من أين تبدأ سفينتى الراسية على الشاطئ الآخر؟ ومن أين لى بالبوصلة التى ترشدنى إلى الاتجاه والطريق الصحيح بعد أن فقدتها طويلًا؟ ثم من يضمن ألا تهب الرياح عاصفة عاتية فتبتلع سفينتى قبل أن تصل إلى الشاطئ «الحلم»؟ من يضمن ألا يعترض سفينتى الآمنة المسالمة قراصنة البحار ليجتاحوها ويبتلعوا الأمل الوحيد.. الوحيد فى الوصول إلى شاطئ الأمان؟!

لا.. لا.. إنك تعودين الآن إلى نفس النقطة.. نقطة الانطلاق الخاطئة التى تترتب عليها كل الخطوات التالية.. فتصبح بالتأكيد كلها خطأ فى خطأ!!

هذه الأسوار لابد أن تسقط.. هذه المخاوف الكثيرة آن لها

أن تتوارى قليلًا ونترك لك الفرصة للحركة.. للعدو.. للطيران!! إنها قيود تلتف حول قدميك.. تسور معصميك.. تقبض على رئتيك.. وتسجن قلبك فى زنزانة الأحزان!.

ثم لماذا تصدرين حكمًا مسبقًا تفترضين فيه أسوأ الاحتمالات وتنسين أن الرياح قد تمضى هادئة فى هذه الرحلة، وأن عهد القراصنة قد ولى منذ العصور الوسطى؟ ألا يتركك الخوف تهنئين بمولد الكائن الجميل داخلك ولو لفترة؟! ألا يسمح لك بالحق فى الاحتفال به والاستمتاع بقدومه بعد غيبة كدت خلالها أن تفقدى الأمل فى عودته.. برغم أن اسمه «أمل»!

معك حق.. كل الحق.. سوف أنسف هذا السلك الشائك.. سوف أحطمه لأنه لا يحمينى.. بل يعتقلنى.. يأسرنى.. يجعلنى أدور فى نفس الفلك حتى أسقط فى مركزه جثة هامدة.. يكبلها الشلل.. ويسيطر عليها العجز!

من اليوم سأخوض الرحلة بلا مقدمات.. بلا توقعات.. بلا احتمالات.. بلا مخاوف.. من اليوم سوف أستجمع شجاعتى.. إصرارى.. طاقة التحدى الضخمة.. وطاقة الحب المتدفقة الفياضة، فلابد للسفينة التى انحرفت كثيرًا عن مسارها أن تخوض المحاولة الصعبة فى عباب البحر.. وسط الرياح.. ولابد للقبطان الحائر أن يجد البوصلة التائهة.. ولابد للسفينة التى وقفت طويلًا على الشاطئ المقابل.. بعيدة المنال.. أن

تدنو منى.. أو أن ألقى أنا بنفسى وسط الأمواج.. أصارعها وتصارعنى.. حتى أصل إليها، أمسك بيدى الحلم.. وأدوس بقدمى شاطئ الأمل!.

◆◆◆

أفاقت من استغراقها الطويل على سخونة الشمس تلفح وجهها.. وضجيج أصوات السيارات والبشر وعجلة الحياة التى بدأت تدب لتعلن عن بداية يوم جديد.. استقبلته اليوم بقلب جديد.. قلب مفتوح للدنيا.. للحياة!.

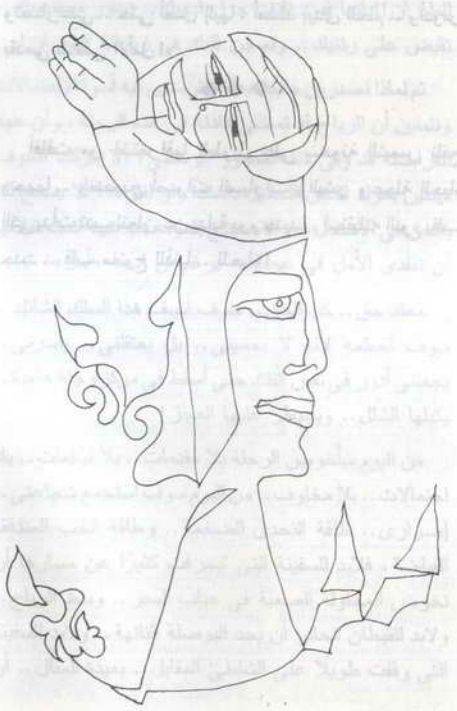

هل أبكيك يا أبى أم ...؟!

اليوم تلقيت الخبر !

هذا الخبر الذى قذف فى قلبى بمشاعر شتى . فقد فرحت .. وحزنت . انتشيت .. وبكيت . احتلنى شجن نبيل .. فأطلّت داخلى أحاسيس التشفى تنازعه .. وآثار الثأر القديم المحفور فى كتاب أيامى .. وخطوط عمرى تحاول أن تزيحه !

العمدة مات .. هذا هو الخبر . انتشر فى قريتنا فى لحظات كان كل بيت يعلم الخبر .. وتلقاه الجميع بذهول ودهشة كأنهم لا يصدقون أن يموت رجل جبار .. ذو قوة ونفوذ .. أو كأنهم

فى داخلهم كانوا يحسون أن جبروته أقوى من أن يقهره الموت .. ولكن مات !

العمدة مات .. هذا الرجل الذى ظلت صورته تلازمنى كظلى شاخصة أمام عينى .. تعيش فى بؤرة عقلى .. تحفز كل حواسى ، لأن تعمل .. فى محاولة لا تنتهى لتحليل شخصيته العبقرية .. وأصبحت الرغبة فى اكتشافها هدفًا محوريًا من أهداف حياتى ..

هذا الرجل كان يعرفنى جيدًا .. كما أعرفه تمامًا . وبرغم ذلك ينكر هذه المعرفة .. كما أنكرها أنا أيضًا . تفر نظراته من عينى بسرعة .. تتراجع نظراتى .. لتختبئ داخلى منكسرة إذا التقيت به مصادفة ! كنت أراه يمشى مختالًا كطاووس كاسر يتفقد فدادينه الفسيحة الممتدة ويستمتع بمشاهدة الأطفال وهم يجمعون القطن من الحقول الخضراء .

كنت واحدة من هؤلاء الأطفال الفقراء الذين يكتوون بنار الشمس فى عز الصيف . وتدمى أطرافهم أثناء عملية جمع القطن . وفى نهاية اليوم يتلقون القروش القليلة بأصابع امتزج فيها العرق بالدماء . كنت أنا واحدة من هؤلاء الصغار الكادحين فقد كانت أمى تعمل خادمة فى دار العمدة ، كانت فى شبابها كما تحكى دائمًا ويحكى عنها أهل القرية . جميلة . فقيرة متدفقة بالحيوية والدفء .

وكان العمدة طرازًا من البشر لا يعترف بغير القوة . القوة بكل صورها وأشكالها . قوة المال والثراء .. وهذا كان موفورًا له حيث ورث عن والده ألفى فدان .. ولم تكن قوانين الإصلاح الزراعى قد صدرت بعد . فكان يتمتع بهذه الثروة وحده .. ويسخر كل أهل القرية . بل ويحكم بأمره فى كل صغيرة وكبيرة فى البلد . كان يؤمن بالقوة .. ويبطش بها أيضًا .

من السهل الآن أن نتوقع ما حدث .. بالطبع وقعت أمى الخادمة الغلبانة فريسة سهلة فى فم الأسد ، لم يسمح لها فقرها ولا ضعفها أن تفتح فمها . حملت من العمدة . وكنت أنا ذلك الجنين الذى يتحرك فى أحشائها . ارتعدت فرائصها خوفًا . وانتظرت حكم هذا الجبار . فهى لا حول لها ولا قوة .

وجاءت الكلمة العليا ، كلمة العمدة الذى تحول إلى اله . لم يكن رأيًا أو قرارًا . بل كان أمرًا لا يجرؤ إنسان على مناقشته أو التمهل فى تنفيذه . استدعى خالى . أخو أمى . المزارع البسيط الفقير . أمره أن يكتب شهادة ميلادى باسمه . وأن يضع اسم خالى فى خانة اسم الأب .

ومن يومها أصبحت أنا ابنة شرعية لخالى !!

عشت سنوات طفولتى لا أعلم شيئًا عن هذه الحكاية . كنت أظن أن عمتى التى تعطينى حنانًا دافقًا هى إنسانة فاتها قطار الزواج . ولم يرزقها الله بابن الحلال . ولكننى فوجئت بها ذات

يوم. وكنت فى الثانية عشرة من عمرى. تجهش بالبكاء. ثم تنهار أمامى وتروى لى قصتها كاملة مع العمدة. مادت الأرض تحت قدمىّ. هزتنى الصدمة بقوة. ولكن الغريب أن تتسلل إلى إحساسى - وسط كل هذه المرارة - مشاعر الفخر والخيلاء فأنا ابنة العمدة. هذا الرجل الجبار الذى يرتعد الرجال من نظرة عينيه. وتقع قلوبهم تحت أرجلهم إذا غضب أو ثار!

وبعدها. كنت كلما التقيت به أتأمله وعشرات المشاعر تعتمل فى نفسى. لحظة أتمنى أن أمسك بمسدس وأفرغ فى قلبه كل الطلقات انتقامًا لما فعله بى أنا وأمى.. ولحظة أتمنى لو يستيقظ ضميره ويعترف بى أمام كل الناس. فأحس برغبة فى الاندفاع الجنونى والارتماء فى أحضان هذا الأب القوى الذى طالما شعرت بالاحتياج إليه. ولحظة أبرر له فعلته وأجهد تفكيرى وعقلى فى العثور على وسيلة توقظ الإنسان داخله ليفتح هذا القلب الميت ويعوضنا بحنانه ونفوذه وسطوته ما حرمنا منه سنينًا أنا وأمى المسكينة.

أحسَّت أمى بكل هذا الذى كبر معى.. حتى بعد أن تزوجت وأنجبت. وجاء ابنى إلى الدنيا - يا سبحان الله - الخالق الناطق جده العمدة. ليصبح هذا الشبه الغريب تأكيدًا للحكاية القديمة التى كانوا يلوكونها سرًا حتى لا يبطش بهم العمدة. فويل لمن طالته هذه اليد.. التى لم تكن ترحم!

وماتت أمى.. والحسرة تسكنها. ولم تهدأ أحاسيسى

المتناقضة يومًا تجاه هذا الرجل. ولم تخرج فى اتجاه واحد. بل كانت تتفجر داخلى كإعصار يمضى فى كل اتجاه..

واليوم مات العمدة. مات أبى الحقيقى. مات الرجل الذى أعرفه ويعرفنى. الرجل الذى أنكرته.. وأنكرنى. هذا الرجل الذى لم أعرف يومًا هل أحبه.. أم أكرهه. فجر عندى اليوم نفس السؤال.. هل أبكيك يا أبى.. أم..؟!

آه .. كم أفتقدك ؟! كم أحتاج إلى حضنك الدافئ يحتوينى ؟ رغم جسدك الهزيل .. وقوامك النحيل .. وتفاصيل وجهك المنمنمة . برغم أنك صغيرتى . فأنت الوحيدة القادرة على احتواء ما بداخلى !

لشد ما أحتاج إليك الآن ؟ كم أحتاج لرأسك الصغير يختبئ داخل صدرى . كم أتوق إلى رؤيتك ؟ ولكن صبرًا جميلًا .. إننى الآن فى الطريق إليك .. افرحى .. ابتسمى يا حبيبتى .. بددى تلك السحابة الحزينة التى أكاد أراها الآن ترقد فى مقلتيك .. إننى قادم !

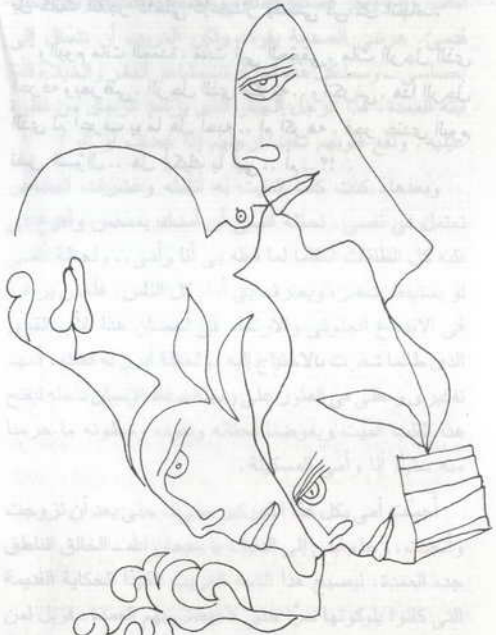

نعم.. أنا قادم.. وصلنى نداؤك الصامت عبر المسافات التى تفصلنا.. شعرت بروحى تهيم بلا مستقر.. داهمتنى مشاعر غامضة لتنتزعنى من نفسى.. من سكونى.. من سلامى الداخلى.. فأدركت أنك أنت.. نعم أنت التى تناديننى.. سمعتك.. ولبيت النداء.

أراك.. أرى وجهك ياملاكى يبتسم لى.. ينير لى. تلك الحشائش الخضراء.. يهتز مع خطوط الشمس.. تسيرين معى.. ومع القطار فى الطريق إليك! تتواثبين بين الأشجار.. تخطف ضحكتك الطفولية قلبى.. يعلو صوتك برنينه الموسيقى.. يملأ أذنى.. يتملكنى اندفاعك الجنونى بكل قوة لترتمى فى أحضانى لحظة اللقاء. وتزلزلنى رقصة الفرحة فى عينيك:

ـ بابا.. «أحمد» حبيبى جه.. يا جدى!

أخبرنى جدك أنك تحسبين الأيام.. تنتظرين بلا سؤال مجيئى.. حكى لى عن حزنك العظيم فى غيابى. وعرفت ياحبيبتى أنك تفقدين شهيتك للطعام.. للعب مع الصغار.. تعزفين حتى عن الغناء الجميل الذى تغرد به حنجرتك.. كشدو عصفور طليق.

تشكريننى ياحبيبة لأننى أترك أعمالى فى العاصمة.. وأتكبد معاناة السفر واقتطاع جزء من الوقت الثمين.. والمال

الشحيح من أجلك؟! تختبئين فى حضنى كقطة خائفة تبحث عن الأمان.. تودعنى نظراتك لحظة الرحيل بدمعة شكر وامتنان.. تجاهدين نفسك ياحبيبتى حتى لا تنساب دموعك. وتبذلين جهدًا عظيمًا لتوقفى انفجار بركان المياه الكامن تحت سطح عينيك العميقتين.

على أى شىء تشكرين؟ ولماذا تمتنين؟ لقد منحتنى أكثر.. منحتنى الإحساس العظيم بأن لوجودى فى الحياة قيمة من أجل إنسان ما. إنسان أحبه. أما أنا.. فماذا منحتك؟! منحتك مشاعر الأبوة التى ولدت معك.. وملأت كل كيانى.. إذا كان هذا ما منحته إياك.. فهل يساوى شيئًا أمام عطائك الفريد!

إنك يانجلائى.. حرمت من حنان الأب الذى يتلقى عقابه الآن.. خلف القضبان نظير ما فعل من شر وظلم (سبحان الله أن يولد ملاك مثلك من عصب شيطانى!) وحرمت أيضًا من حنان الأم.. هذه السيدة المسكينة التى سافرت وتغربت.. من أجلك.. وتركتك أمانة.. زهرة وحيدة فى ظلال حب ورحمة جديك المسنين. ولولا أنها عملت معى فى نفس المؤسسة التى أعمل بها وكانت سكرتيرة فى نفس القسم لما عرفتك.. ولكنها إرادة الله العظيم. فعندما عرفتك ياصغيرتى وحاولت إسعادك ولو قليلًا أحسست أن حياتى أصبح لها معنى.

فأنت يا حبيبتى لا تعرفين ما أفتقده أنا برغم الشهرة وبرغم الموهبة التى حبانى الله إياها ويحسدنى عليها الكثيرون. برغم

مركزى المهنى والعلمى الكبير ، أشعر أحيانًا أننى أفتقد كل شىء !

نعم أتمتع بنجاحى . تؤنسنى موهبتى تنتزعنى من وحدتى وغربتى . وبرغم كل ذلك أفتقد الإحساس بأن حياتى تعنى شيئًا ذا قيمة لدى إنسان معين . إنسان أشعر أننى هو . وأنه .. أنا . إنسان يحتاجنى فأسمع نداءه من آخر الدنيا وأجيبه . ويسمع أنينى عن بعد فيسرع إلىّ .

احتاج لـ« إنسانى » . وها أنت قد أصبحت « نجلائى » لتملأى لى هذا الفقد العظيم . هل تدركين - الآن - يا صاحبة العيون الجميلة .. المليئة بالكلام .. كم أنا ممتن لك ؟! مدفوع بكل حبى وحنانى إليك . أنت نبع لا ينضب .. أرتوى منه كلما أحسست بالجفاف يجتاح مشاعرى . وأنت ضوئى الجميل الهادىء الذى أتحسس طريقى إليه .. باطمئنان .

أنت يا « نجلائى » .. صاحبة فضل علىّ ولست أنا .. وأنا قادم إليك .. ها هى المحطة قد اقتربت .. عرفت من قلبى الذى خفق فرحًا وطربًا كقلب طفل يحتضن ملابسه الجديدة لتنام معه ليلة العيد . لابد أننى اقتربت منك .. اقتربت من مائى .. ونبعى الوحيد . فاستعدى لاندفاعك المجنون نحوى .. ارتمى فى احضانى .. واحتوينى !

فى فجر ذلك اليوم قرر أن يكف عن هذا الهراء وأن يتوقف عن هذا العبث .

ألقى بالقلم على أوراقه البيضاء ساكنة فى استسلام يشبه الموت وقام ليقطع الغرفة ذهابًا ومجيئًا . كانت عيناه حمراوين تؤكدان أنه لم يذق طعمًا للنوم لحظة واحدة طوال الليلة الماضية ، أما عقله فقد أحس بأنه تحول إلى جزء من هذه الدوامة التى تأخذه إلى دوائر مفرغة شديدة القسوة .

لن أكتب بعد اليوم .. يجب أن أعترف أننى قد أفلست ! ولم

كل هذا الجبن؟ لماذا لا نواجه أنفسنا بالحقيقة.. وهذا ما يجب أن أفعله الآن.. وأتوقف.

ويكمل السير.. ويبدأ فى قراءة هذه الوجوه التى خرج أصحابها إلى الشارع مثله فى هذا الوقت المبكر جدًا ولكن لابد أن أسبابهم.. تختلف عن أسبابه.

ـ ياه.. سوف تفلت قدم هذا الصبى الصغير من فوق «مقود» الدراجة.. ياه.. كيف يستطيع أن يحمل هذا الكم الضخم من الخبز فوق رأسه.. ويوجّه بيد واحدة دراجته. آه.. لا أستطيع أن أتابع هذا المنظر.. أشعر أنه سوف يسقط على الأرض فى أى لحظة.. بدراجته وخبزه!

◆◆◆

ويمر أمام محطة أتوبيس.. فتلفت نظره فتاة ملامحها تنم عن رقة وجمال ذى حياء.. يتابعها عن بعد.. ليقرأ بعد قليل علامات القلق على وجهها وهى تتناوب النظر إلى ساعة يدها.. ثم إلى الطريق من جهة اليمين وأيقن أنها تنتظر شخصًا ما.. ويصل أكثر من أتوبيس.. يقل الركاب ويذهب.. وتبقى هى واقفة كما هى.. يهرول إلى المحطة ركاب آخرون ويمضون وهى كما هى.. تنتظر فى قلق بدأ يتزايد.. ويتحول إلى اضطراب ملحوظ.

وفجأة.. وبينما يتابع بشغف وجه الفتاة الصغيرة تنقلب

ملامحها كلها فى لحظة خاطفة.. تتحول تمامًا الملامح المنقبضة.. العابسة إلى البشاشة والارتياح. وتلمع العينان بالسعادة تضيئهما ابتسامة ارتسمت عليهما.. من القلب.

وبحركة تلقائية تحركت عيناه مع اتجاه حركة عينى الفتاة لتقع على شاب وسيم، ممتلئ بالحيوية، يتقدم بخطى متوثبة فى اتجاه الفتاة الرقيقة.. وتشع عيناه بنفس البريق الذى يشير إلى معنى واحد.. لا يختلف عليه اثنان!!

◆◆◆

ويلتف من الشارع الكبير إلى حارة صغيرة.. وقد امتلأت رئتاه بهواء الصباح النظيف.. الرطب.. وتحركت هذه الكتلة الجامدة الجاثمة على قلبه.. وبدأت هذه الطبقة الكثيفة العازلة تتبدد وتتلاشى.. وتنقشع عن إحساسه.. شعر فجأة بقوة غريبة تنفجر داخله.. فتغيرت سرعة خطواته.. وانطلقت قدماه فى رشاقة وخفة تقطع الطريق!

◆◆◆

إستوقفه تجمع فى أحد أركان الحارة الضيقة شاب فى عمر الزهور وأطفال صغار.. وفتيات صغيرات تختلط أصواتهن وتتزاحم أجسادهن. اخترق هذا الجمع ليكتشف وجود «أم جمعة».. هكذا يناديها المزدحمون حولها.. «بعشرين قرش طعمية يا أم جمعة».

انتظر حوالى ساعة .. يتأمل بشغف وانجذاب شديد «أم جمعة» ويغوص فى هذا العالم الغريب. وفى لحظة اختفى الزحام بعد أن أخذ كل زبون من زبائنها إفطار يومه .. ومضى إلى حال سبيله.

فتقدم بهدوء ناحيتها .. وبحياء وخجل يميزان شخصيته سألها:

ـ هل أستطيع أن أتحدث معك قليلًا؟

قالت وهى تتفحص وجهه .. وتحاول أن تعرف بالضبط ماذا يريد:

ـ خير يا أستاذ .. ماذا تريد؟

قال:

ـ هل لديك أولاد؟ وهل ما يزال زوجك حيًا يرزق .. أم ..؟!

وقاطعته قائلة:

ـ هل تأثرت لحالى .. وأنا أقف وسط الناس فى الشارع وأقوم بقلى الطعمية .. وبيعها .. لابد أنك سألت نفسك .. لماذا تشقى هذه المرأة فى هذه السن؟ ولماذا تقاسى؟

ازدادت الدهشة على وجهه .. وهو يواجه بالفراسة الفائقة فى سيدة بسيطة آمنة. وقال:

ـ نعم .. هذا بالفعل ما أثار تساؤلى.

وكأنها قرأت ما يدور فى رأسه .. أكملت إجابتها عن أسئلة لم يقلها .. قالت:

ـ ياسيدى .. كنت أعمل وأشقى فى شبابى لأربى أولادى بعد أن مات زوجى وتركنا بلا مورد .. ولا سلاح يعيننا فى معركة الحياة .. عملت وعرفت .. والحمد لله كبر أولادى .. وصار أكبرهم «جمعة» الآن طبيبًا ناجحًا.

ـ وكيف يقبل ابنك أن تقاسى وأنت فى هذه السن وهو قادر على أن يعولك .. ويرد الجميل.

ابتسمت المرأة ابتسامة تحمل أكثر من معنى .. وقالت:

ـ لأنه يعلم أننى لم أعد أحتمل أن يفوت يوم دون أن أرى طلبات أولاد حارتنا .. من إذن سيصنع لهم الطعمية .. طعمية «أم جمعة»؟ يا حضرة .. الفلوس مش كل حاجة .. وابنى يعرف جيدًا أن اليوم الذى أقرر فيه أن أجلس فى بيتى .. سيكون آخر يوم فى حياتى.

ترك «أم جمعة» ليتوجه إلى منزله .. دخل إلى غرفة مكتبه، أحس بحنين غريب إلى أوراقه البيضاء وقلمه الحبر الأسود جلس إلى مكتبه .. واستغرق فى فيضان استمر لساعات يتدفق على الورق!

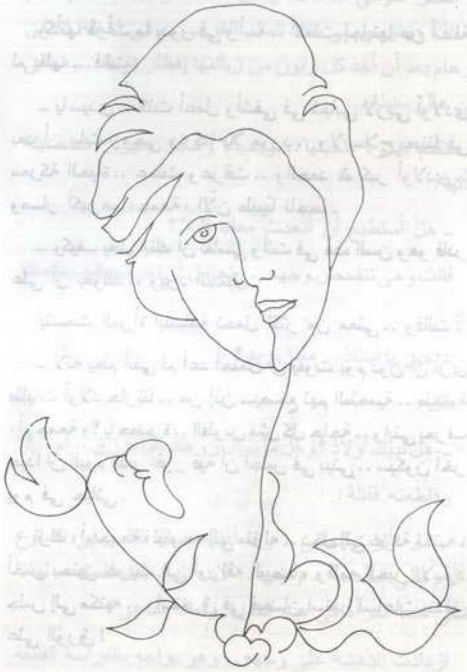

فى انتظار معجزة !

غلبه الحزن .. بعد يوم حافل بالتوتر والشجون .. غفلت عيناه برهة .. ثم غرق فى نوم عميق . والدموع تغادر مقلتيه فى حنان وهدوء .

استيقظ على صوت الباب يدق .. نهض مسرعًا ليفتحه . وجد صديقه الحميم ، دقائق مرت دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، فقد كانا يجيدان قراءة ما تبوح به عيونهما .. دون كلمات !

بعد فترة صمت قطع صديقه السكون قائلًا :

- إننى أعلم كم كانت الصدمة عاصفة أعرف أنك تحبها ربما أكثر من نفسك لكن ..

قاطعه «أحمد» قائلًا:

ـ أنا لا أعترض على إرادة الله.. ولكن.. ولكن لماذا هى؟ لماذايخترق الشيطان اللعين جسد ملاكى؟! لماذا لا يحدث هذا لأشخاص حاقدين.. فاسدين.. لا يعرفون الخير.. والحب.. والجمال. لماذا يختارها الله هى.. هذا القلب النابض بالحياة.. هذه الانسانة تعيش لتعطى كل الناس.. وتنسى نفسها!

قال مصطفى:

ـ هذا كفر بالله يا أحمد.. استغفر الله، وقوِّ إيمانك.. ادع لها وسوف يستجيب الله لنداء القلوب البيضاء والنفوس الشفيفة. ادع لها. ولا تفقد ثقتك بالله.

واستطرد مصطفى قائلًا:

ـ إننى لا أنكر أن (...) إنسانة شفافة يحبها الجميع وأعلم أنها أغلى الناس عندك. ولكنى أخشى من شىء... أرجو أن أصارحك به. فقد قامت صداقتنا القديمة على الصراحة.

التفت «أحمد» إليه بعينين مرهقتين وسأله:

ـ ماذا تقصد.. تكلم بصراحة.

قال «مصطفى» بصوت متردد:

ـ أخشى أن يكون حبك لها نابعًا من تأثرك بمحنتها وإحساسك العميق بمأساتها، و...

قاطعه «أحمد» بحدة:

ـ لا.. تقصد شفقة؟! لأول مرة أشعر أنك لا تفهمنى.. لأول مرة أشك فى أن لغة الحوار بيننا واحدة. الشفقة ياعزيزى شعور يجتاحنا تجاه إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة. لكن.. ولكنها أقوى إنسان قابلته.. فكثيرًا ما أضع نفسى فى موقفها وأتأمل كم هى مبهرة فى قوة إرادتها.. وعظمة إيمانها بالله وبنفسها إننى أحبها ياصديقى. هل فهمت؟!

ابتسم «مصطفى» وهو يتأمل بسعادة ملامح صديقه «أحمد» المحبة.. وقلبه العامر بحب حقيقى نادر فى هذا الزمان وقال:

ـ إذن.. فسوف أهديك شيئًا جميلًا. يعمق داخلك الثقة بالله والتشبث بالأمل حتى آخر لحظة. هذا الكتاب لجراح أمريكى يروى فيه كيف توصل إلى أسلوب جديد فى علاج الأمراض المستعصية أو اليئوس من شفائها. وكيف أثبتت نتائج تجربته المبهرة أن هناك مناطق داخل الإنسان لم تكتشف بعد.. وقال الطبيب الأمريكى إنه اكتشف أن كل إنسان يستطيع أن يحارب مرضًا مستعصيًا فشل العلم والأطباء فى علاجه لو توافرت لديه إرادة قوية للحياة. ولم يكتف الجراح بسرد هذه الأفكار التى يمكن أن تفسر على أنها من المقولات التى تدعو إلى التفاؤل والتمسك بالأمل. بل روى بالتفصيل قصصًا لعدد من الحالات التى كان أصحابها مصابين بالسرطان فى مراحله الأخيرة.

زاد اهتمام «أحمد» وأشرق وجهه بالفرحة وقال:

ـ وماذا كانت نتيجة تجربته.. قل لى بسرعة يا «مصطفى».

ـ يقول الدكتور الأمريكى إنه توصل إلى العلاج الروحانى. إلى البحث عن دافع يقوى من عزيمة المريض ويجعله يتمسك بالحياة.

ـ والنتيجة؟

ـ وابتسم «مصطفى» قائلًا:

ـ النتيجة كانت ممتازة.. فقد شفى عدد كبير من المرضى شفاءً تامًا من أمراض كان من المستحيل الشفاء منها.

قفز «أحمد» من مقعده والفرحة تنطلق فى ملامحه وقبّل صديقه بحرارة. اختطف من يديه الكتاب وأخذ يقبّله وقال والدموع تنساب من عينيه:

ـ إذن.. سوف تتحقق المعجزة!

الانتحار حبًا

وقف الأطباء فى غرفة الاستقبال بالمستشفى الكبير فى دهشة كبيرة مما يجرى حولهم، تتبادل نظرات عيونهم نفس السؤال بلا صوت.. «هل هذا هو روميو؟.. هل هذه هى جولييت؟!»..

هكذا رسم المشهد المثير هذا السؤال فى أذهان كل من رأوه!!

سيارة الإسعاف تتوقف أمام قسم استقبال المستشفى وتنزل منها فتاة وشاب، فى شبه غيبوبة، يتشبث كل منهما بالآخر، وهما فى حالة انهيار كاملة، يرفضان أن يفصل بينهما أحد، بل يتكئ كل منهما على الآخر، وقبل أن يسقطا تلقفتهما أيدى

الممرضات والممرضين لينقلاهما على السرير المتحرك إلى داخل غرفة الاستقبال.

وبعد فحص سريع، يقرر الطبيب المعالج د. «أحمد محفوظ» النائب النوبتجي بالمستشفى الكبير إجراء غسيل معدة لهما بسرعة بعد أن اكتشف أنهما ابتلعا معًا كميات كبيرة من أقراص «الفالينيل» المنومة!

◆◆◆

- ما الحكاية؟! إنه حادث انتحار إذن!!

ويفيق الشابان.. وما يزال الشحوب يغطي وجهيهما، ونظرات عينيهما زائغة، تجول في خوف وقلق وكأنها تبحث عن شيء ما.. وما أن تقع عينا الشاب على فتاته حتى تنطلق كلماته الملهوفة:

- حبيبتي.. هل أنت بخير؟ ثم يتمتم في همس: الحمد لله الحمد لله وتنظر إليه الفتاة الشابة وتقول:

- وأنت هل ما تزال معي؟! لم أفقدك؟! شكرًا لك يارب!!

كأنهم يشاهدون فيلمًا رومانسيًا ناعمًا، وقف الأطباء والممرضات يتفرجون على «روميو وجولييت» ويتهامسون في دهشة متسائلين: هل يمكن أن يظهر روميو وجولييت في زماننا هذا؟! في القرن الواحد والعشرين؟!

◆◆◆

ولأن الحادث انتحار.. فكان لابد أن يحرر به محضرًا، فماذا قال الشاب؟ وماذا قالت الفتاة في المحضر الذي تحرر بقسم الهرم بالواقعة؟

قالت الفتاة: أحببته كما لم أتخيل أن أحب أحدًا، لم أستطع أن أمنع عاطفتي الجارفة نحوه، كانت أحاسيسه ومشاعره وأخلاقه تغوص داخل إحساسي فتحتويه، لم أطق مجرد التفكير في أن أعيش بعيدًا عنه مهما كانت الظروف وأقسمت له، إنني لن أكون لرجل غيره مهما وقفت بيننا العقبات!

وقال الشاب: وجدت فيها كل ما تمنيته في فتاتي، طيبة، جميلة في قسماتها، وأجمل من قسماتها، روحها الشفافة التي تكشف عن قلب طفل بريء ينبض داخلها، نعم أحببتها ولن أحب غيرها، لذلك قررت أن أتزوجها بعد قصة حب عنيفة استمرت لمدة خمسة شهور، وتزوجنا برغم رفض أهلي وأهلها.

واستطرد الشاب: نعم سبحنا ضد التيار، كان كل شيء ضدنا يحاول أن يحطم حبنا الكبير، وتحول إحساسنا القوي إلى مارد عملاق يقاوم بشراسة أي عقبة في طريق أحلامنا وحبنا النادر.. وتزوجنا لنقيم في منزل أختي المسافرة مع زوجها والمقيمة في السعودية حيث يعمل هناك، ولكن..

ولكن.. ماذا؟ لماذا الانتحار إذن وقد حققتما حلمكما وتزوجتما؟ قال للمحقق:

ـ لأننا عشنا فى قلق كبير، أهلى يطاردوننى ويضغطون علىّ لكى أطلقها، منعوا عنى المبالغ التى كانوا يساعدوننى بها أصبحت الحياة قاسية وشبح تشردى أنا وزوجتى بلا منزل ولا حياة مستقرة، يرعبنى ويفزعنى.

خفت أن تضطرنى الظروف لترك حبيبتى التى أصبحت زوجتى برغم كل الاعتراضات والعقبات، وهكذا كان شعورها.. نحن الاثنان قلب واحد انقسم فى جسدين، ما أشعر به تشعر به، وما يؤلمنى يؤلمها، وما يفرحنى يفرحها.. هكذا نحن الاثنان انصهرنا معًا فى كيان واحد!

◆◆◆

بعد عملية المعدة التى أجريت للزوجين الشابين، المنتحرين حبًا، لانقاذهما من موت كان محققًا لولا تدخل العناية الإلهية، وبعد أن عرف الأطباء أن «روميو.. وجولييت» ابتلع كل منهما ٤٥ قرصًا من أقراص «الفالينيل» المنومة، بعد أن قررا إمّا أن يعيشا معًا، أو يموتا معًا، وكان اختيارهما أن يتخلصا من هذه الحياة القاسية التى لا ترحم حبهما، ويهربا معًا إلى العالم الآخر، ربما يكون هناك رحمه وشفقة على هذا الحب الحائر!

بعد غسيل المعدة كان لابد أن تذهب «سارة» إلى «عنبر

النساء» بالمستشفى «ويذهب «هشام» إلى «عنبر الرجال». فهذا هو النظام المعمول به فى كل المستشفيات.

ولكن.. ولدهشة كل الموجودين فى هذه اللحظة، بدأت توسلات «سارة وهشام» بأن يبقيا فى عنبر واحد، بل فى سرير واحد!!

وضحك الأطباء كثيرًا من شدة الدهشة والاستغراب أنهما فعلًا «روميو وجولييت»، ولم يكن أمام المستشفى إلا رفض طلبهما فلم يحدث فى تاريخ المستشفى القديم أن نزل رجل مع امرأة فى نفس العنبر، حتى ولو كانت زوجته!

واقتربت ممرضة شابة من «سارة» التى استسلمت حزينة لتعليمات المستشفى فى حسرة، وفضول غريب يتملكها بأن تعرف تفاصيل مشهد النهاية فى القصة الحقيقية.. مشهد الانتحار، فكم تصورت هذا المشهد وهى تقرؤه فى رواية «شكسبير».. وكم سبح خيالها مع إحساس أبطال الرواية.

وها هى ذى ترى بطلة حقيقية، ممددة على السرير أمامها.. تتمنى أن تروى لها تفاصيل المشهد الأخير..

وبدأت «سارة» تحكى وتسترجع هذه اللحظات التى عاشتها بكل كيانها مع «هشام».. وهانت عليها الحياة من أجله، ونسيت تعاليم دينها الذى يحرم ازهاق الروح والتدخل فى إرادة الله تعالى، وأقبلت على هذه التجربة المجنونة التى كادت أن تودى بحياتها!

قالت «سارة»:

ـ قررت أنا وهشام أن نذهب إلى الإسكندرية لمدة يومين لنريح أعصابنا التى أرهقتها ضغوط أسرتينا ومحاولاتهما التفريق بيننا.. وفى الطريق أحسسنا خلال المناقشات بأننا نمضى فى طريق مسدود.. وأننا لن نستطيع أن نقف وحدنا أمام كل هؤلاء.. فقررنا أن نموت معًا!!

ذهبت إلى صيدلية واشترينا علبتين «فالينيل»، ثم توجهنا إلى الطريق الصحراوى، ثم أوقفنا السيارة، والدموع تغطى وجهينا، وابتلعنا الأقراص، ونحن نبكى، ثم وجدنا سيارة تقترب منّا، فانتابنا الخوف، فأسرع «هشام» يدير محرك السيارة، ومشينا قليلًا بالسيارة، ويبدو أن الأقراص كانت قد بدأت مفعولها، فاختلت عجلة القيادة فى يدى «هشام»، ولمحت صورة ما حدث، وكأن السحاب يلفها، لم أرها بوضوح، كأننى رأيت حائطًا كبيرًا ونحن ندخل فيه بالسيارة، وسمعت صوت ارتطام عال، ثم فقدت إحساسى بكل شىء!

استمعت الممرضة الرومانسية إلى قصة «سارة وهشام»، والإثارة تظهر على ملامح وجهها، وكأنها تشهد أحد أفلام الخمسينات!!

براءة!

«سيدى القاضى، هيئة المحكمة الموقرة.. إننى لا أطالب عدالتكم بتخفيف الحكم عن موكلتىّ فى جريمة القتل المنسوبة إليهما.. بل أطالب لهما بالبراءة. وأقول إنه لو عاد المجنى عليه إلى الحياة مرة أخرى.. لقتلته بيدى هنا أمام عدالتكم!!

ارتسمت علامات الدهشة على وجوه الحاضرين.. وارتفعت همهمات لأصوات تتهامس من بين صفوف القاعة.. وضرب القاضى بيده على المنصة يطلب من الجلوس الانصات والهدوء.. وقال بصوت تعلن نبراته عن الاستنكار والغضب..

موجهًا كلامه إلى المحامى الموكل عن المتهمتين المنكمشتين خلف القضبان بالقاعة.. قائلًا:

ـ ما هذا يا أستاذ؟! كيف وأنت رجل قانون تتفوه بهذه الجملة الغريبة التى يعاقب عليها القانون ضاربًا بهيبة المحكمة عرض الحق والعدل والضمير؟!!

جفف المحامى الشاب عرقه.. فقد اندمج أثناء مرافعته لدرجة التعايش الكامل مع مأساة موكلتيه.. وحاول أن يستجمع نفسه ليرد على القاضى قائلًا:

ـ سيدى القاضى معذرة! ولكن اسمح لى أن أكرر ما قلته مرة أخرى.. ورفع صوته ولوح بيده اليمنى منذرًا وقال:

ـ «لو عاد المجنى عليه مرة أخرى إلى الحياة لقتلته بيدى هنا.. أمام هيئتكم الموقرة»!

واستطرد قائلًا بعد أن ارتفعت درجة انفعاله مرة أخرى دون أن يستطيع السيطرة عليها برغم محاولاته..

ـ إن ما فعله هذا الوحش بعد أن فقد الحد الأدنى من الإنسانية ليعود إلى شريعة الغاب.. ويسقط من اعتباره كل المثل والقيم.. ويفقد الإحساس بأى شىء إلا غرائزه الحيوانية.. ويتحول بفعل المخدر اللعين إلى ثور هائج.. فيدمر حياة أسرة بأكملها هى أسرته.. ويعتدى على أبرياء بلا ذنب جنوه.. ويضرب بكل

تعاليم الديانات السماوية عرض الحائط.. هذا الإنسان الذى سولت له نفسه الشريرة فعل كل هذا لا يستحق إلا القتل.. فهذا هو العدل إذا كنا نبحث هنا عن العدل..

سيدى الرئيس.. حضرات السادة.. انظروا إلى هاتين السيدتين.. انظروا إليهما جيدًا وسوف تقرأون فى عيونهما فصول المأساة.. سوف تحسون مرارة الألم تفيض مع دموعهما.. فلا تزال الجروح التى أحدثها الوحش «القتيل» تنزف داخلهما.. هو مات.. وعاشت أفعاله الدنيئة كوصمة عار تلطخ شرف أقرب الناس إليه!

◆◆◆

فى نفس هذه اللحظة التى اتسمت بالإثارة الشديدة.. كان الحاضرون يكتمون أنفاسهم ترقبًا للمشهد الثانى من فصول القصة المثيرة.. واتجهت الرؤوس مرة واحدة ناحية القفص الحديدى.. اخترقت النظرات المتسائلة وجهى هاتين السيدتين اللتين تجلسان فى انكسار خلف القضبان.

◆◆◆

أما داخل القفص حيث كانت تختبئ الحقيقة.. فقد تكومت المتهمتان فى أبعد ركن عن دائرة الرؤية.. وكأنهما تواريان عارهما عن عيون الناس!

إحداهما شابة لم تتجاوز الثلاثين عامًا إلا بسنوات قليلة.. هكذا تقول ملامح وجهها الحزين.. أما الأخرى.. فهى امرأة جاوزت الخمسين.. ولن كانت تبدو فى التسعين من عمرها من هول ما عاشته!!

إنهما أم.. وابنتها.. متهمتان فى جريمة قتل أو أغرب قضية شهدتها محكمة الزقازيق.. أما القتيل فهو ابن السيدة الكبيرة.. وشقيق الشابة الصغيرة!!

كان هناك حوار صامت يدور بين المتهمتين الأم وابنتها وكأنهما تعيدان معًا شريط ذكريات هذا اليوم الأسود.. وتسترجعان مشاهده الدرامية العنيفة.

المشهد الأول.. البنت تهرع إلى أمها.. تلطم خديها بكلتا يديها وقد تورمت عيناها من كثرة البكاء.. وانتفخ صدغاها من شدة اللطم عليهما.. الأم تفزع لرؤية ابنتها فى حالة الذعر هذه تهدئ من روع ابنتها.. وفجأة تصرخ فيها الابنة:

ـ أين كنت يا أمى؟ أين كنت وابنتى ـ حفيدتك ـ تضيع؟! لماذا لم تصونى الأمانة يا أماه؟ لماذا لم تحم شرف ابنتى وهى فى رعايتك؟ لقد ضاعت ابنتى.. وأنت السبب.. لأنك لم تصونيها من هذا الوحش المفترس.. طبعًا لن تصدقى من هو.. من هو هذا الوغد الذى دمر حياتى وحياة ابنتى.. إنه ابنك!!

نعم ابنك يا أمى.. وأخى.. أخى هو الذى اعتدى على شرف ابنتى!!

تهالكت الأم المسكينة على مقعدها.. وقد هدها الخبر.. ولم تكن هذه هى القنبلة الوحيدة التى أطلقت فى هذا اليوم الأسود.. بل كانت هناك قنبلة أخرى أشد خطورة وأكثر فتكًا تناثرت شظاياها لتحرق قلبى الأم والبنت.. وتستقر فى العمق!

فجرت الأم.. الجدة.. القنبلة الثانية.. عندما انهارت أمام ابنتها لتفضى إليها بالسر الذى ناءت بحمله وحدها.. وقاست آلامه صامتة ونخر عذابه قلبها.. مع ذلك لم تكن تملك الجرأة والشجاعة لأن تقص ما حدث لأقرب الناس إليها.. لابنتها.

قالت الأم بصوت متهدج.. وقلب يعتصره الألم وعينين تفيضان بالدمع بلا توقف:

ـ ابنتى.. لا تظلمينى.. إننى أيضًا ضحية.. ضحية ابنى المستهتر الذى دمره إدمانه.. فأفقده آدميته.. حتى نسى قدسية صلة الرحم.. نسى أننى أم.. جاء فى ليلة من الليالى متأخرًا قرب الفجر.. كنت نائمة.. دخل إلى غرفتى مندفعًا تحت تأثير حقن الماكستون فورت التى يتعاطاها.. وفوجئت به يتهجم علىّ!! أفقت من نومى مذهولة.. غير مصدقة لما يحدث.. نهرته.. حاولت أن أضربه وأبعده عنى.. حتى يفيق ويعود إلى صوابه وعقله.. ويتذكر أننى أمه.. ولكن دون جدوى!

وتبكى الأم بصوت عال.. وهى تتذكر بألم ومرارة ما حدث.. ثم تقول:

- لم يرحم ضعفي وشيخوختي .. بل ضربني وطرحني على السرير واعتدى على وسط دهشتي وذهولي !!

وأجهشت الأم بالبكاء .. بينما سيطر على ابنتها الصمت من هول الصدمة .. واستمر ضمت الابنة التي تجمدت دموعها في مقلتيها وهي تستمع إلى قصة أمها وشقيقها .. ونحيب الأم المسكينة يشعل وقود قلبها الملتهب أكثر وأكثر ..

وفجأة تمسك الابنة بذراع أمها .. وكأنها تنتزع موافقتها على أمر عقدت العزم على تنفيذه مهما كلفها .. قالت البنت بلهجة حاسمة قاطعة :

- أمي .. إن هذا الوحش الحقير قتلك عندما انتهك قدسية أمومتك .. وقتلني أنا أيضًا عندما دمر مستقبل ابنتي .. وأنا لن أهدأ إلا إذا قتلته .. هل توافقينني؟

سرحت الأم للحظات .. وهي ترى الإصرار يشع من عين ابنتها .. وفجأة انطلقت من داخلها إجابة محددة من كلمتين .. نعم .. نقتله ..

◆◆◆

المشهد الثاني .. الابن السافل يعود إلى المنزل .. كيان مهترئ .. مهدرة إنسانيته .. عبد للكيف .. الوقت يقترب من الفجر .. الأم والأخت تنتظرانه .. الأخت تقدم لشقيقها كوبًا من الشاي الساخن .. أفرغت فيه عدة أقراص منومة ..

بعد دقائق استسلم العربيد لنوم عميق .. فأسرعت أخته إلى

المطبخ تستل سكينًا .. ثم تنهال عليه طعنًا لتغطي الطعنات أجزاء جسده .. والدموع تغطي وجهها .. وتلتقط الأم السكين من يد ابنتها لتهوى بها على جسد الابن الممدد والدماء تنزف منه .. تضرب .. وتضرب بعنف .. بشكل هيستيري .. حتى يلفظ آخر أنفاسه !

◆◆◆

تتبادل الأم والابنة النظرات داخل القفص الحديدي بقاعة المحكمة ودمعة حزينة قد علقت بمقلتيهما بعد أن أفاقا على صوت الحاجب من دوامة الذكريات صائحًا بصوته الجهوري المعهود .. الحكم بعد المداولة ..

◆◆◆

وتمضي دقائق .. وتدخل هيئة المحكمة إلى القاعة .. ويبدأ القاضي في تلاوة الحكم :

«بعد الاطلاع على أوراق القضية .. والاستماع إلى النيابة والادعاء والدفاع وأقوال الشهود .. حكمت المحكمة حضوريًا ببراءة المتهمتين من التهمة الموجهة إليهما».

وتضج المحكمة بتصفيق حاد تكاد ترج له الجدران وترتفع صيحات الحاضرين .. يحيا العدل .. يحيا العدل !

ذكريات ليلة ممطرة!

قطرات المطر .. يا إلهى .. ألا تتوقف قطرات المطر ؟!

قالها بقلب مفعم بالحزن، ونفس أثقلتها آهاتها المكتومة، وروح عليلة .. باكية!

تسمرت عيناه اللتان فاضتا بالدموع على وجه هذه السيدة، تأمل قطرات الماء تسرى بين التجاويف التى صنعتها خطوط الزمن، نفذت نظراته الحزينة لتعبر أحداثًا وأيامًا عاشتها هذه النائمة فى سلام .. غير عابئة بقطرات المطر .. ولا قرسة البرد وقسوته. ربما اعتاد هذا الجسد امتصاص الصدمات. ربما أصبح مهيأ لأن يتحول إلى صخر .. لا يشعر .. لا يتألم ولا يبرد!

«كم أنت عظيمة يا أمى» جملة أطلقها بتنهيدة عميقة وهو يمسح دموعًا انسابت منه بفيض غريب بعد أن عجز عن سد الفتحات فى سقف الغرفة الصغيرة التى يتكومون فيها هو وأمه وأربعة إخوة صغار.

مات أبوه منذ سنوات خمس وتركه وهو فى ربيع عمره يحمل تركة ثقيلة.. أم حنون حفرت قسوة الزمن بأزميلها الحاد تجاعيد غائرة على الوجه.. وتجاعيد غائرة أكثر فى القلب. قلبها الذى كتب عليه أن يحمل دائمًا فوق طاقته، بل فوق طاقة أى إنسان! فقر زوجها المزارع.. وعجزه عن العمل وتوفير قوت الأولاد.. خروجها كل صباح فى قطار الفجر لتخدم فى بيوت المدينة.. لتعود آخر النهار جثة هامدة لا تستريح.. بل تكمل رحلة الشقاء مع أطفالها الصغار وزوجها المريض.

فى صباح اليوم التالى لتلك الليلة الباكية.. استيقظ مبكرًا، أو بالأحرى غادر الدار مبكرًا، فهو لم ينم إلا لدقائق متفرقة.. متقطعة فى تلك الليلة المطيرة الشجية. خرج مندفعًا وكأنه عقد العزم على تنفيذ فكرة تمكنت منه.

استقبله صاحب مكتب التسفير مستغربًا فقد كان ما يزال نائمًا عندما دق باب بيته ليفاجأ بالفتى الشاب أمامه يطلب الدخول، زادت ملامح الدهشة على وجهه وهو يطلب منه أن يسافر إلى أى بلد.. وفى أسرع وقت ممكن! فقد كان صاحب المكتب دائم الإلحاح عليه فى أن يقبل السفر ووعده مرارًا

بتوفير عقد ممتاز بأجر عال ومزايا كثيرة. لكن الشاب الصغير كان يرفض فكرة البعد عن أرضه ووطنه وأمه وإخوته الصغار كانت أحلامه كلها بذورًا لا تصلح لأى تربة أخرى سوى تربة مصر. ولم يكن على استعداد لأن يئد الحلم الكبير فى مقبرة اللهاث المسعور وراء الثروة السريعة.

كانت هذه أفكار «حسن» ولم يكن هناك إنسان يستطيع أن يزحزحها فى رأسه قيد أنملة، فقد كان شديد الاعتداد بنفسه برغم الفقر والعوز. ثقته بإمكاناته بلا حدود. وإيمانه بأن الكفاح والصبر هما الطريق الوحيد لتحقيق الحلم لا يتزعزع.

لذلك جزع الرجل وهو يستمع إلى هذه المفاجأة الغريبة. وحاول عبثًا أن يعرف سبب هذا التحول الجذرى المفاجئ. فأجابه «حسن» بكلمات مقتضبة «يجب أن أسافر. لابد أن أسافر. هذا هو كل ما أستطيع قوله».

كل ما ادخره من عمله فى الأرض ومن مكافآت التفوق التى كان يحصل عليها فى كلية الزراعة فقد احتل المركز الأول فيها طوال سنوات الدراسة، أفرغه فى حجر أمه وهى ذاهلة.

ـ فيه إيه يابنى.. حد زعلك.. ليه هتسافر.. ده احنا ملناش غيرك».

وسط بركان متفجر من البكاء ومشاعر الفراق.. سافر «حسن». كان يتسلق سلم الطائرة.. كأنه يسير فى جنازة..

واليوم.. اتخذ «حسن» القرار. سوف يدفن الحلم. سوف

يذهب ويحضر مالًا ليبنى به سقف الغرفة. سوف يغير أهدافه فى الحياة. بعد السقف.. سيفكر فى التليفزيون.. ثم الفيديو.. ثم الغسالة الأتوماتيكية، اليوم.. مات «حسن»، وولد «حسن» آخر، كل حلمه أن يسد فتحات سقف الغرفة.. حتى لا يرى قطرات المطر تجرى فى ثنايا تجاعيد هذه السيدة العظيمة. سوف يفعل أى شىء حتى يسد سقف الغرفة.. أى شىء.. وأغلى شىء.. سوف يوسد حلمه داره الأخيرة!

أقوى من الحياة!

فى لحظة من لحظات الصفاء والتجلى سألته بدلال:

- هل تحزن إذا فارقتك؟!

واستدركت قائلة:

- أقصد إذا رحلت عن الدنيا.. وتركتك وحيدًا. فليس هناك ما يستطيع أن يفرقنا.. إلا الموت.

أضاءت وجهه ابتسامة هادئة جميلة. تلك الابتسامة التى طالما تأملتها، واحتضنتها عيناها بحب حقيقى. رد على سؤالها بسخريته المحببة وقال:

ـ أولا .. أحب أن تطمئنى .. فلن ترحلى عنى . سوف أموت أنا قبلك! (وانطلقت ضحكته رنانة لتملأ المكان) .

برغم الضحكة الرنانة، والروح المرحة التى أشاعها كلامه فقد انقبض قلبها انقباضًا غريبًا، وخفق بشدة عندما ارتسم الموقف فى خيالها للحظة، رأت نفسها وحيدة فى هذه الواحة الجميلة بعد ثلاثين عامًا من السعادة والتفاهم والحب . لأول مرة وحدها .. فهما لم يفترقا أبدًا .

داهمها حزن مباغت، تغيرت ملامح وجهها ، وأطلت سحابة باكية من عينيها . لاحظ هو ذلك فعاد يداعبها من جديد :

ـ ما رأيك .. نموت معًا .. حتى لا يعيش أحدنا تلك المشاعر الرهيبة .. اتفقنا .. اضحكى .. اضحكى يا حبيبتى . لا تجعلى الأحزان تلهينا عن هذه الليلة الجميلة .. اضحكى من أجلى .

لحظات صمت لفت المكان . انطلق صوتها بشجن :

عاهدنى .. عاهدنى يا حبيبى ألا تتركنى وحدى .

عاهدنى ألا ترحل عن الدنيا قبل أن أغادرها أنا . فأنت كل ما لى فى هذه الحياة . فتحت عينى للدنيا .. فوجدتك . ومنذ اللحظة التى التقينا فيها كتبت شهادة ميلادى الحقيقية .

هل تعلم ذلك يا حبيبى .. أننى فعلًا أحسب عمرى منذ التقينا .. أتذكر بدايتنا معًا؟ أتذكر كيف قمت بدور الأب معى عندما واجهت الفشل فى بداية مشوارى فى حياتى العملية . لقد

انتشلتنى أصابعك المحبة لترفعنى رويدًا .. رويدًا . طمأننى هدوؤك، وأعدت بحكمتك الثاقبة ثقتى إلىّ .

جذبنى قلبك المحب من ركودى، ونزعت ثياب أحزانى ليتحول فشلى الأول ـ بفضلك ـ إلى نجاح ملء الأسماع والأبصار . بفضلك انطلقت ونجحت .. واكتشفت نفسى!

وفجأة .. انسابت دموعها .. بلا توقف!

◆◆◆

دق جرس التليفون فى مكتب الصحفية الكبيرة .. رئيس مجلس إدارة المؤسسة الصحفية الشهيرة .. كانت ابنتها على الطرف الآخر . الابنة طالبة جامعية . طلبت منها أن تأتى حالًا

احتلها الشعور بالانقباض .. فقد كان صوت الابنة ينبئ عن أن حدثًا جللًا لابد أنه وقع .

فى دقائق قطعت الطريق بأقصى سرعتها . وصلت إلى المنزل لتفاجأ بزوجها وقد دخل فى غيبوبة . تمالكت نفسها بصعوبة لتعرف أنه سقط على الأرض وهو يستعد لارتداء ملابسه للذهاب إلى الجامعة حيث يعمل رئيسًا لقسم الفلسفة .

وصل الطبيب .. وبسرعة تقرر كل شىء . نزيف فى المخ ولابد من نقله إلى غرفة الإنعاش . أيام، وشهور عصيبة مرت، يخفق قلبها مع كل آهة تصدر دون وعى من زوجها .

◆◆◆

انفجر الطبيب المعالج ذات يوم فى وجهها . كان صديقًا لها ولزوجها ، وكانت علاقته بهما تسمح له بالحديث دون تحفظ ، قال ثائرًا :

ـ أرجوك . ارحميه .. اتركيه .. اتركيه ليموت ويرتاح . إنه يصارع الموت من أجلك . و . ويتعذب !

الليلة بطولها لم يغمض لها جفن ، ظلت تستدعى كلمات الطبيب ، وتسترجع مواقف لزوجها خلال الأيام العصيبة الماضية . وتتأمل فى ذاكرتها وجهه المتألم ، وآثار هذا الصراع الداخلى الذى يدور داخله فى تحديه للموت .

بكت .. بكت طويلًا . استعادت الشريط كله . سنوات العمر الطويلة ، الحب والسعادة ، المشاركة فى كل شىء .

قبل الفجر بساعة دخلت إلى غرفته . مسحت دموعها وأمسكت بيده ، قبلتها بحب وربتت عليها بحنان . وبدأت تكلمه بصوت مختنق بالدموع وهى تعلم أنه فى غيبوبة .. لا يسمعها . قالت :

ـ أرجوك .. أرجوك ياحبيبى أن ترتاح . إنك فى حل من الوعد الذى قطعناه سويًا . الآن أنا أريدك أن ترتاح . أرجوك إننى أطلب إليك ذلك من أجلى أنا فلم أعد أستطيع أن أراك هكذا معذبًا أمامى .

ارتح ياحبيبى .. وسأكون قوية بك . بذكراك الحية أبدًا فى

وجدانى . بحبنا الذى لم يكن كلمة تقولها أنت .. أو أقولها أنا . بل كان حبًا أقوى من الحياة .. وسوف يظل كذلك .. بعد الحياة !

بعد نصف الساعة دخلت دموعها . جلست إلى كتاب الله تقرأ آياته فى خشوع .

بعد نصف ساعة دخلت الغرفة .. وجدته مبتسمًا نصف ابتسامة عيناه نصف مفتوحة . مدت يدها المرتعشة ، تشبثت بيده فى وجل لتسرى برودة غريبة من يده إليها ....

وانسابت دموعها فى صمت .. !

حينما التقى بها شعر أنه وجد ضالته المفقودة، فقد كانت صورة طبق الأصل للمرأة التى بحث عنها طويلًا .. ولم يجدها! والآن .. أخيرًا وبعد عامين من الألم والشقاء وجدها .. ليشعر أن حياته بدأت معها من جديد!

كانت «منى» شابة اقترب عمرها من الثلاثين .. لم تتزوج من قبل فقد جذبها عالم البحث والدراسة لتغوص فى أعماقه. وبعد التخرج تقدمت لنيل درجة الماجستير ثم الدكتوراه فى الأدب المقارن.

أما هو فقد سبق له الزواج من قبل، ولديه طفلتان صغيرتان،

لم يدم زواجه طويلًا.. فقط أربع سنوات انتهت بفقد زوجته فى حادث أليم. كانت ابنته الكبرى عمرها عامان، أما الصغرى فلم تكن قد أكملت عامها الأول بعد!

◆◆◆

هزته الصدمة من أعماقه حتى كادت تعصف بحياته ومستقبله، وحياة طفلتيه، ولكن بعد فترة الانهيار الكامل نزلت السكينة الإلهية لتلهمه الصبر والتحمل وبدأ رحلة الشقاء التى حاول خلالها التوفيق بين عمله الشاق كأستاذ جامعى بكلية الآداب ومسئوليته فى نفس الوقت عن دار نشر وترجمة يمتلكها.

حاولت أمه وأخواته التخفيف عنه قدر استطاعتهن. ولكنه وجد أن استمرار هذا الوضع ضربًا من المستحيل، فقرر الزواج ولكن بشروط. على رأسها يوضع الأولاد فى المقام الأول عند الاختيار، بمعنى ألا يتم هذا الاختيار طبقًا لمصلحته هو أو نوع المرأة التى يحب أن تشاركه حياته بل كان يبحث عن الإنسانة التى تتميز بعطاء متدفق.. وأمومة متفجرة.. وحنان فياض، كان يبحث عن إنسانة تحبه بشدة.. لدرجة أن تقبل أن تكون أمًا حقيقية.. أمًا بمعنى الكلمة لطفلتين لم تحملهما أحشاؤها.. ولم يربط بينها.. وبينهما رباط الحياة!

وعبثًا راح يفتش فى كل معارفه.. أقاربه.. زميلاته فى الجامعة.. تلميذاته من الطالبات.. دون جدوى.. كانت أحيانًا تجذبه فتاة ويشعر بميل نحوها ثم تمضى الأيام بهما إلى طريق مسدود.. فقد كان من داخله يبحث عن الأم أكثر مما يبحث عن الزوجة والحبيبة.

عامان كاملان، كاد يقع بعدهما فى بؤرة اليأس بعد أن اصطدم بالحقيقة. كانت كل منهن تريد أن تبدأ حياتها معه، ولا تظهر اعتراضًا تجاه الأطفال، ولكن لم يشعر مع أىٍّ منهن أنها ستملأ الفراغ الرهيب فى حياة طفلتيه البريئتين، لم يحس أن حرارة العاطفة وصدق العطاء عند أى امرأة التقى بها سوف تذيب هذا الثليج الذى خلّفه موت الأم. وداخله شك عميق أن أحدًا لن يدفئ هذا البيت بعد رحيل صاحبته.

فى قلب اليأس. بزغت بذرة الأمل. وجدها.. وكأنه التقى بالصورة التى رسمها فى خياله. كانت هى.. بالضبط، القلب الذى يسع إنسانًا! العطاء الذى يتدفق حبًا وحنانًا! الدفء المفقود فى حياته الباردة القاسية.

◆◆◆

ولم يتردد.. تزوجها بأسرع مما تصور الجميع، واستطاعت «منى» أن تحتوى الصغيرتين فى حضنها الحنون، فأحباها كما لو كانت أمهما الحقيقية وناداها بأجمل كلمة كانت

تتوق لسماعها منذ زمن طويل «ماما». أما هو.. فقد شعر أن العالم كله أصبح بين يديه.

وعادت السعادة لكل أفراد هذا البيت. حتى «منى» لم تشعر بأى شيء ينقص حياتها، فقد كان «جلال» هو أيضًا صورة طبق الأصل للرجل الذى تمنته وانتظرت طويلًا حتى وجدته. شيء واحد فقط ظل حيًا. يقظًا داخلها. أن تكتمل سعادتها بطفل ثالث من بطنها!

مر عام على زواجهما ولم يحدث حمل. انزعجت «منى» لأنها لم تستخدم أى موانع للحمل. وداخلها الشك فى أنها قد تكون عاقرًا. ذهبت إلى الطبيب وأجرت كل البحوث المطلوبة. وجاءت النتيجة إيجابية. تؤكد أنها طبيعية جدًا وليس لديها أى مشاكل تمنعها من الحمل والإنجاب!

◆◆◆

لاحظ «جلال» انشغال «منى» وشرودها الدائم فى الفترة الأخيرة فسألها:

ـ ماذا بك يا «منى».. هل هناك شيء يشغلك؟!

ولم تستطع «منى» أن تخفى ما بداخلها أكثر من ذلك.. انفجرت باكية وصارحته برغبتها فى أن يكون لها طفل منه، وأنها قلقة لأن هذا لم يحدث حتى الآن. وحكت له عن زيارتها للطبيب والتحاليل والبحوث التى أكدت نتائجها أنها سليمة.. وليست عاقرًا..

طمأنها «جلال» وقال لها:

لا تخافى ياحبيبتى.. إن هذا يحدث بمشيئة الله.. لا تتعجلى.. وربت على كتفيها فى حنان قائلًا:

ـ ثم إن عندك طفلتين جميلتين.. لا تكونى طماعة!!

تسلل الحزن إلى قلب «منى» بمرور الأيام.. فقد يئست من تحقيق الحلم الذى تمنته طويلًا.. وقررت أن تسلم أمرها إلى الله.. فهو العلى القدير يعطى من يشاء ويحرم من يشاء.

◆◆◆

كانت «منى» ترتب أوراق مكتب «جلال» بغرفته الخاصة بالمنزل. وقعت علبة دواء كانت بين الأوراق على الأرض فانحنت لتلتقطها. لفت نظرها شكلها الغريب حاولت أن تقرأ اسم الدواء. ثم جذبها فضول ولد فى لحظتها لفتح العلبة، وتقرأ النشرة التى بداخلها تصف الجرعة المناسبة، واستخدامات الدواء، ودواعى الاستعمال، ومضاعفاته أو آثاره الجانبية، وغيرها من المعلومات التى تحرص شركات الأدوية على وضعها مع كل دواء تنتجه حماية لعملائها، وإرشادًا لهم.

◆◆◆

لم تستطع «منى» أن تكمل قراءة النشرة فقد أحسّت وكأن سهمًا حادًا قد اخترق قلبها.. فأصابها فى الصميم!

لقد عرفت الآن السر! وفهمت هذا اللغز الذى عذبها وكاد

أن يحطمها وتهالكت «منى» على المقعد وكأنها فقدت كل سيطرة على نفسها، وأخذت تردد:

لا.. ليس معقولًا أن يفعل «جلال» بى هذا ليس معقولًا أن يفعل الرجل الذى أعطيته بلا حدود هذه الجريمة!

لقد قرأت «منى» فى نشرة الدواء الذى أخفاه عن عينيها ليتناوله سرًا.. أنه أحدث عقار أنتجته شركات الأدوية فى لندن لمنع الرجال من الانجاب!!

فى صباح ذلك اليوم.. احتواها قلق غريب. فقد أجهدها التفكير بحثًا عن فكرة جديدة لقصتها التى تنشرها بالمجلة كل أسبوع.

«لم تكن حيرتها وقلقها نابعان من حالة ركود ذهنى يشل أو يعطل عملية الولادة لفكرة جديدة. لكنه كان نابعًا من تعليقات كثيرة من زملاء ومعارف.. وقراء أيضًا. فقالو إنهم يشعرون فى سطورها بنبرة حزن عالية.. ويتهمونها برغم إعجابهم الشديد بالأسلوب والتناول والفكرة بأنها تبحث عن المآسى وتسعى إلى آلام الناس لتكتب عنها. وقالوا إن سطورها تتحول إلى قطع حية تنبض بالإحساس المعذب وتنطق بالألم النبيل!

استغرقها التفكير. غاصت داخل نفسها تحاول أن تجيب عن سؤال ألح عليها.. هل الحزن جزء من تركيبتها النفسية. وهل هذا ما يجعلها - دون تعمد - تبحث عنه فى الآخرين؟!

عاودت طرح السؤال على نفسها مرات.. ومرات وفى كل مرة كانت تطل من داخلها إجابة مختلفة. مرة تجئ بالموافقة على أنها بالفعل تسعى إلى آلام النفس لتكتب عنها وتعبر عن تلك المشاعر الإنسانية الرقيقة. ومرة أخرى يعلو صوت آخر مدافعًا عنها وينفى هذه التهمة.. ويقول.. لا.. لا تظلمى نفسك فمساحة الحزن فى حياتنا كبيرة تغطى معظم خلفية الصورة.. أما الفرح والسعادة فلا يمثلان إلا نقاطًا متفرقة وخطوطًا رقيقة.. رفيعة ترتسم على الخلفية العريضة!

أصرت أن تثبت لنفسها ولقرائها ومعارفها الذين أطلقوا عليها هذا الاتهام أنه ليس صحيحًا. وقررت أن تجلس إلى أوراقها وقلمها وتكتب قصة لا تتخلل سطورها آلام ولا يطل الحزن من بين كلماتها.

ساعات.. وساعات أمضتها فى صراع مع نفسها شهده قلمها وأوراقها.. سطور تكتب ثم يدوس سن القلم بعنف ليمحو كل ما كتبته. اشتعل توترها وزاد قلقها وأحست لأول مرة بأنها عاجزة! وتهالكت على مقعد وثير إلى جانب مكتبها فى يأس كامل.

بدأ حوارها الداخلى مع نفسها يفتح طرقًا أخرى للخلاص

من هذا الموقف الصعب. قالت.. سأترك القصص التى عايشتها بنفسى والتقيت بأصحابها الحقيقيين وسأحاول أن أخرج من هذه الدائرة الضيقة إلى دائرة أرحب. لابد أن أكتب هذا الأسبوع بعيدًا عن الاحزان.. مهما حدث!

تركت مقعدها وضغطت مفتاح التليفزيون. فاجأتها موسيقى عذبة شجية فعادت إلى مقعدها فى مواجهة التليفزيون. تواصل اللحن الجميل وامتزجت الموسيقى بأصوات جماعية.. ثم غناء فردى لمطربين ومطربات يؤدون كلمات رائعة مؤثرة.. تخترق القلب وتهز الكيان. مضى الوقت وهى جالسة فى نفس المكان وقد تسلل الشجن إلى نفسها مع غنائهم الذى كان أقرب إلى المرثية.. مرثية أبناء الكويت على وطنهم المغتصب.. ونواح على القاتل والقتيل عرب.. مسلمون من أمة محمد. وعرفت بعد أن انسابت دموعها مع الألحان والكلمات أن ما قدمه التليفزيون كان الليلة المحمدية فى ذكرى المولد النبوى الشريف. وفى مناسبة انتهاك كل القيم الانسانية. واغتيال الفرحة فى قلوب العرب!

اضطرت للاعتذار عن عدم كتابة قصتها هذا الأسبوع. وظلت أيامًا أخرى فى حالة من القلق والتوتر خوفًا من أن يحدث هذا الأسبوع ما حدث فى الأسبوع الماضى.

شعرت أن الحلقة تضيق حول رقبتها كلما ركزت فى البحث عن هذا الشىء المجهول.. السعادة.. أو البهجة ففكرت فى أن تغير الوجوه التى تلتقى بها والأماكن التى تتردد عليها، والموضوعات التى تركز عليها وتشغل اهتمامها.

ذهبت إلى معرض للفن التشكيلى وهناك التقت بعيون أطفال شعرت بها تتحدث.. وتهتف تصرخ فى تحد.. وتلمع عيونهم بالدموع فى إباء. ناقشت الفنان الرسام صاحب المعرض فيما تجسده لوحاته الناطقة وأبطاله المتحركون الثائرون.

كانت اللوحات تجسد انتفاضة أطفال الحجارة ودار الحوار طويلًا بين رواد المعرض عن المجزرة الأخيرة فى المسجد الأقصى والشباب الفلسطينى الذى أهدرت دماؤه فى ساحة المسجد!

عادت إلى البيت وقلبها ينوء بأحزانها فقد ظللت عيون الأطفال المطلة من لوحات الفنان تستفزها.. تحفزها تشعل أحاسيسها. وبعد مقاومة لم تطل اندفعت إلى مكتبها. ووضعت أوراقها.. وأمسكت قلمها الذى عجز أيامًا طوالًا عن أن يخط كلمة واحدة. وشعرت بطوفان المشاعر يموج داخلها بالانفجار.. بالتدفق..

لم يتوقف القلم. جرى على الورق بلا لحظة تفكير كانت أشبه بسجين خرج من زنزانة خانقة. فأسرع يجرى.. ويقطع الشوارع سيرًا. ولم تشعر بنفسها إلا بعد أن وضعت النقطة الأخيرة فى السطر الأخير لقصتها. ثم كتبت العنوان: «دموع عربية».

وجه فى المطر..

سقطت الأمطار فجأة، قطرات خفيفة فى البداية. ما لبثت أن تكاثفت، وتسارعت لتكون خيوطًا مائية رفيعة تأخذ مسارها من السماء إلى الأرض فى تدفق حميم.

رذاذ لذيذ منعش يخترق مسام الوجوه كأنه وخزات رقيقة وأناس كثيرون ازدحمت بهم الشوارع فى الصباح الباكر، كتل من الأجساد والبشر تتقابل، وتختلط فى مزيج عجيب، فى عيونهم آثار النوم ما تزال، وفى حركتهم عجلة ملحوظة، وارتباك كأنهم فى صراع مع الزمن.

ما أن وصلت قدماها إلى الدرجة الأخيرة فى سلم العمارة التى تسكن بها حتى فاجأتها القطرات الندية كصديق غائب منذ

زمن، فرحت بها، قفزت من داخلها ومضات رشيقة، مضيئة، ألقت بنفسها فى هذا الجو الأثير، ملأت رئتيها بشهيق عميق طويل، كأنها تعّب ما استطاعت من هذا الهواء البارد الجميل. آه.. إذن لقد أتيت أخيرًا أيها الغائب العزيز، كم كانت غيبتك طويلة.

رغم حدّة البرد، وقطرات المطر أحب الشتاء، وأحب قطرات المطر، الطفلة الصغيرة تقفز وتنطلق من داخلى، ترفع وجهها لتستقبل بشرتها تلك القطرات الساحرة، تخترق مسامها بل تغوص أكثر وأكثر فتنتعش الروح وتصفو.

أسير خفيفة أتأمل النّاس، واتعجب. سيدة تنكمش تحت حقيبة يدها الضخمة، تحنى ظهرها لتحجب عنها قطرات المطر. وهذا الرجل يفرد جريدته الصباحية. يمسك طرفيها بأصابعه ويجعلها مظلة تقيه من المطر.

استمتع بالطريق تغسله المياه وتغمره رائحة المطر، أطيل ما استطعت المسافة. أترك محطة «المينى باص» القريبة لأقتنص دقائق أخرى وسط هذا الجو الشفيف.. الحميم.

أتمنى لو أوقف اللحظة الجميلة التى أتت فجأة كأنها هدية السماء، أغوص بالكامل فيها، وأتشبع بذلك الهواء المبلل بالمطر، أحاول أن أمسك بهذا الدفء الساكن فى قطرات فضية باردة، وأسبح.

صعدت درجات «المينى باص» أعطيت لقاطع التذاكر النقود، فأعطانى التذكرة، أخذت مكانى فى مقعد يطل على الطريق إلى جانب النافذة، فتحتها، لم أشأ أن تفوتنى نسمة هواء باردة. اصطدمت عيناى فجأة بمشهد اخترقنى فى لحظة من سحابات النعومة التى كنت أتهادى بينها واستمتع.

طفل صغير يتكوم على الرصيف المواجه للمحطة فى ثياب ممزقة، وجه برىء ملوث بتراب الشارع الذى اختلط بقطرات المطر وتحول إلى طين أسود.

نادتنى عيناه بقسوة براءتها. جذبتنى. استغاثت بى فى صراخ صامت.

اندفع جسدى كله ـ دون تفكير ـ نحو سلم «المينى باص» لم تفارق عيناى، عينيه، القويتين فى تعبيرهما الصامت، وصلت إلى السلم، وعندما وضعت قدمى على أول درجة فى السلم تحرك «المينى باص» مغادرًا المحطة.

كانت الأمطار ماتزال تهطل، ونظراتى الباكية ماتزال معلقة.. بهذا الوجه وسط الزحام. وابتعدت المسافة بينى وبينه. وتوارت العينان البريئتان، خلف قطرات المطر.

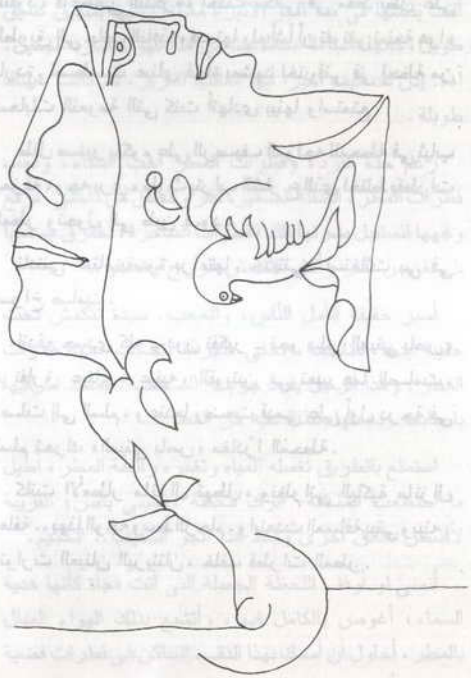

أين أنت ؟!

كل شيء كان يمكن أن أتصور حدوثه .. إلا هذا!
كل مفاجآت الحياة كنت أستطيع احتمالها أو التعايش معها .. إلا هذه!

كل لطمات القدر كان من المحتمل أن أصمد فى مواجهتها .. إلا تلك اللطمة .. القصمة التى فصلت كيانى إلى نصفين .. لا يستطيع نصف منهما أن يتصالح مع النصف الآخر .

وأتساءل فى خلوتى مع نفسى .. كيف تحول قلبك العملاق الذى كان يحتوى آلامي فيذيبها ..
كيف تحول إلى حجر لا يحس ولا يلين؟

كيف تحولت واحتى إلى غابة موحشة ؟ أتوق إلى هذا الصدر الذى ارتميت عليه كثيرًا وبللت دموعه ملابسه . أتوق إلى تلك النظرة الحانية المستوعبة لصغر سنى عمرى وضآلة خبرتى فى الحياة والبشر ، أتوق إلى صوتك الهادئ.. وحكمتك السديدة.. احتاج إلى الإنسانة الوحيدة التى تحبنى أكثر من نفسها.. أين أنت.. أين ذهبت.. إننى أحتاج إليك أكثر الآن.. كبرت.. نعم كبرت.. تزوجت.. وأنجبت وعرفت أجمل عذاب.. عذاب الأمومة.. فاحتجت إليك أكثر.. وأكثر.. وأكثر !!

أحس الآن برغبة جارفة فى أن يضمنى حضنك.. أن تعود سيارة الزمن وتتوقف هناك.. عندما كنت ما أزال طفلة رضيعة.. تلثمين جبينها برقة.. وتهدهدينها بحنان وشفقة. وكأنها زهرة لم تتفتح بعد !

أتعطش الآن إلى لحظة واحدة.. لا بل دقائق.. دقائق أحكى لك فيها مدى الظلم الذى استطاع قلبك العملاق أن يمارسه معى.. مع قطعة منك ! اسمعينى يا أغلى إنسانة.. اسمعينى يا أمى !

هل تذكرين أيامنا السعيدة. كنا أسرة هانئة. كان ذلك قبل أن ينتقل أبى الحبيب إلى جوار ربه. وعندما حدث ذلك. دخل الحزن حياتنا لأول مرة. ولكننا تقبلنا إرادة الله بالصبر

والإيمان. واحتفظنا بالدموع لتستقر فى أعماق قلوبنا.

لا أنكر يا أمى أنك كنت خير أم.. عكفت على إكمال المسيرة التى تركها لك الحبيب.. وضممتنا إلى صدرك الحنون لتعوضينا عن أحن أب. كان الله - سبحانه وتعالى - هو ملجؤك الوحيد فى هذه المحنة.. لذلك فقد عزفت شيئًا.. فشيئًا عن الحياة. وتفرغت للصلاة والصوم وكذلك فعلت أختى الصغرى التى سافرت مع زوجها إلى إحدى الدول العربية. وشيئًا.. فشيئًا بدأت الهوة تتسع بينى وبينك.. تغيرت معاملتك لى تغيرًا كبيرًا ، لم تعودى أمى الحانية التى تشفق على إرهاقى فى عملى كطبيبة للأطفال ، وبين مسئولياتى فى بيتى وزوجى وأولادى. وكنت تأتين كثيرًا لتشاركينى فى تحمل هذه الأعباء والمسئوليات.

وفجأة يا أمى جاء قرارك القاسى.. كأنه حد السيف تسلطينه على رقبتى بعد أن كثرت المشاجرات بينك وبينى وكان سببها أنك تأمرينى بارتداء الحجاب.. بل النقاب كما فعلت أختى الصغرى ! وكنت أقول لك يا أمى إننى مسلمة.. أؤدى ما أمرنا به الله من فروض. ولا أقرب أى معصية. وأعامل ضميرى فى كل شىء. وقلت لك يا أمى إن مسألة الحجاب لابد أن تنبع من داخل الإنسان ومن قناعته الشخصية.. دون إملاء من أحد.. ولكنك يا أمى لم تقنعى.. حرمت على نفسك دخول بيتى.. حتى عندما مرضت ومرض ابنى مرضًا خطيرًا هان

عليك ألا تزورينني ولا أن تكوني بجانبي وأنا في أشد الحاجة إليك!

حرمتني من أمومتك.. وحرمت أولادي الذين يسكن حبهم لك أعماقهم.. من حنان الجدة والأم أيضًا!

وألقيت بقنبلتك الثانية في وجهي يا أمي.. تريدين أن أترك عملي، وعبثًا حاولت إقناعك بأن عملي هو عمل إنساني بالدرجة الأولى. وأنني أكون في كثير من الأحيان سببًا من أسباب الله في إنقاذ طفل أو طفلة.

والآن.. يا أمي.. أسألك.. هل هذه هي روح الإسلام.. هل يأمرنا دين التسامح والخير والسلام بأن نجلد أنفسنا ونعذب أقرب الأقربين إلينا؟ هل استخرت ربك وربي ورب المؤمنين جميعًا قبل أن تغمدي الخنجر القاسي في حياتك.. وتحكمي عليّ بالييتم وأنت حيّة على قيد الحياة وأنا مهما كبرت. ومهما مضت بي السنون طفلة أمامك.

بسطور مدادها الدموع.. أكتب. وبقلب أهلكه فراقك أستغيث.. وبتشبث طفلة بثياب أمها أصرخ بأعلى صوتي: عودي.. عودي يا أمي..!

نور القلوب!

اعتاد رواد المكان.. المغرمون بمتابعة المشهد الفريد لقرص الشمس يتهادى بخفة.. ورشاقة ونعومة ليغوص رويدًا.. رويدًا في أعماق البحر.. عند الغروب. اعتادوا أن يتأملوا هذا الرجل الذي أصبح بالنسبة لهم أحد مفردات المنظر البديع.

وجهه ينبئ عن سنوات عمره التي ربما تجاوزت الأربعين قليلًا يرتدي ملابس مهندمة.. بسيطة تشير إلى ذوق راق في اختيار الألوان وتناسقها. يضع على عينيه نظارة سوداء سميكة. ويحمل في يده اليمنى عصا بيضاء يتحسس بها

الطريق. أما آلة التصوير التى لا تفارقه فقد كان يعلقها على الكتف الأيسر بحزام جلدى سميك.

نفس الشىء. بنفس تتابع السيناريو كان يجرى على شاطئ البحر كل يوم. قبيل الغروب بحوالى الساعة.. يصل الرجل ذو النظارة السوداء السميكة. والعصا البيضاء اللامعة. يتخذ موقعًا أصبح معروفًا لدى رواد المكان.. يخرج الكاميرا من حقيبتها. ويضبط مفاتيحها وأزرارها وأرقامها بدقة.

يبدأ تثبيت الكاميرا فى أوضاع معينة بدقة شديدة. وحساب خاص. ثم يضغط على مفتاح التقاط الصورة! بعدها يمسك بالكاميرا من جديد ليعيد ضبط كمية الضوء وطول المسافة. وعمق الكادر وغيرها من الأمور الفنية التى يتقنها المصور الفوتوغرافى المحترف. ثم يغير وضع اللقطة.. ويكرر نفس الشىء مرات ومرات.. ليجمع فى نهاية الساعة ما يقرب من سبع أو ثمانى لقطات نادرة.. ومختلفة للمنظر الرائى الأخاذ.

عن بُعد ظلت ترقبه لأكثر من أسبوع. لم تستطع أن تمنع نفسها من تأمله. فقد كان بالفعل مثيرًا للفضول، كانت سيدة جميلة.. أنيقة.. شابة. من عشاق متابعة غروب الشمس.. ولقائها العظيم مع البحر كتبت كثيرًا تصف هذا اللقاء العملاق. وتترجم بالكلمات روعة هذا المشهد.. فهى أديبة.. لها حس فنان.

بعد أسبوع اقتربت من الرجل.. وهى تحاول التغلب على خجلها فلم يسبق لها أن اخترقت خلوة إنسان بدون سابق معرفة. فهى تقدس الخصوصية. وتدرك أبعادها.

إلا أنها أحست برغبة جارفة فى التقرب والتعرف إلى هذا النموذج الإنسانى. والغوص فى أعماق تركيبته النفسية إنه - كما يبدو - كفيف لا يرى بعينيه ولكن ما هذا الذى يفعله. إنه يلتقط صورًا لغروب الشمس ويبذل جهدًا فى انتقاء الزوايا والمناظر. أى أنه فنان وليس فقط مصورًا ينقل الواقع على ورق حساس. بل هو يعبر عن رؤيته الخاصة لهذا المنظر من خلال زاوية خاصة. وعدسة خاصة.

وحيرها السؤال على مدى أسبوع كامل.. كيف؟! كيف يحدث هذا. كيف يرى ما يقوم بتصويره. إنها حقيقة غريبة. لذلك قررت أن تقتحم خلوته وتسأله.. كيف يحدث هذا الشىء الغريب بكل المقاييس؟!

تنحنحت حتى تشعره بوجودها. ثم قالت.. هل تأذن لى أن أتحدث معك قليلًا. فأجابها بابتسامة هادئة مرحبة.. تفضلى.. بكل سرور.

وبدأت الحديث بسؤال مباشر.. أعذرنى إن كنت سوف أسأل سؤالًا محرجًا.. ولكن..

قاطعها قائلًا.. نعم ياسيدتى الفاضلة.. أنا كفيف غير

مبصر . هكذا خلقنى الله بعيب خلقى . ولدت لا أرى . واعتدت أن أرى الدنيا بطريقتى الخاصة !

ترددت الكلمات فى حلقها واعتراها الخجل . فقد فوجئت بإجابته القاطعة .. الواضحة .. المحددة . وازداد إعجابها بتلك الثقة الشديدة فى نبرة صوته ، والهدوء المميز لشخصيته .

لاحظ ما اعتراها من خجل وتردد . فبادرها قائلًا .. ربما تتساءلين كيف أمارس هذه الهواية وأنا كفيف . وربما كانت الحيرة الشديدة فى العثور على إجابة هى التى دفعتك للحديث .

قالت وما يزال الخجل يلون نبرات صوتها .. فى الحقيقة أنا أتابعك منذ أسبوع . وأتأملك بإعجاب شديد ودهشة ، وكثيرًا ما تصورتك مبصرًا . فكل ما تقوم به يعتمد على الرؤية . بل دقة الرؤية . ولذلك فقد زادتنى إجابتك الآن حيرة ودهشة .

ابتسم الرجل ابتسامة ملؤها الرضا والسعادة .. وقال .. هل تعتقدين أن الكفيف ليست لديه القدرة على الرؤية ؟

لم تنبس بكلمة . فقد كان سؤاله مباغتًا .. وغريبًا . فأكمل حديثه .. ياسيدتى .. إن الخالق الأعظم خلق لكل إنسان البصر .. والبصيرة . البصر هو القدرة على رؤية الحياة بالعين . وأنت تدركين هذا لأنك مبصرة .. لذا فالمفهوم لديك واضح ومعروف .

أما البصيرة .. فهى هذا الإحساس الأعمق للرؤية .. الرؤية

بالقلوب . إننى أرى الحياة . أرى جمال قرص الشمس الأرجوانى .. ولونه المشع .. القوى .. يخفت رويدًا .. رويدًا . وإشعاعاته تذوب بين السحب وتتوارى . ثم يهبط ببطء ونعومة لينام فى حضن البحر . أرى هذا المشهد وأتابعه بالكاميرا واستمتع به . كما أرى الأزهار فى الحديقة وأرى الناس . وأرى الشوارع والبيوت . إننى أرى كل شىء ياسيدتى !

ازدادت علامة الدهشة على وجهها وهى تمسك ببعض اللقطات المطبوعة التى أخرجها الرجل من حقيبته الصغيرة وقدمها إليها لترى بعضًا من إنتاجه .

بعد جلسة طويلة مع الرجل .. سارت وحدها على الكورنيش تتأمل ..

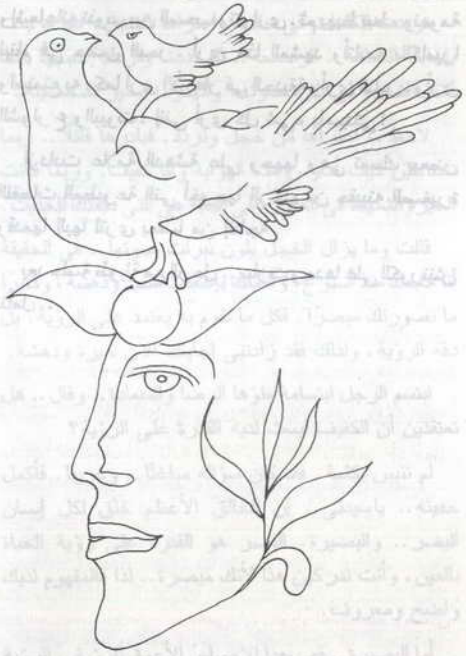

الرحيل

نعم.. سأرحل..

سأحمل طوفان أفكارى.. وتلال أحمالي.. وأرحل.. علّنى أجد بحرًا عميقًا.. أو قاعًا بلا قرار، ربما استطعت أن أعثر على مفتاح السجن، وأفك أسر هذه الروح المحمومة..

الرحيل.. ليس هناك إلا الرحيل، فقد أرهقنى هذا الحوار الداخلى الدائم، أرهقنى أن يكون السؤال، سؤالى، وأن يكون الجواب أيضًا جوابى، أرهقنى أن أكون الصوت، وصدى الصوت فى آن واحد..

تسألنى وهل يتوقف الحوار الداخلى بتغيير المكان، المكان، الوجوه، درجة حرارة الجو، أو شكل الشوارع والبشر؟..

فأجيبك إنى راحلة إلى المجهول، ذاهبة وفى داخلى رغبة للقاء إنسان واحد.. إنسان أفتقده بشدة، فقد ضغطت عليه الحياة بكل قسوتها، حاولت انتزاع الجمال منه، ففشلت، لأن الجمال يسكن داخله، هذا الإنسان اختنق داخلى، فقد القدرة على التنفس.. وفجأة ضاع منى، وسافر إلى المجهول..

تسألنى. هل أنت واثقة من العثور عليه، من لقياه..

فأجيبك: إنها مغامرة، ولكنها مغامرة محسوبة، ليست لها إلا نتيجة من اثنتين، إما الحياة، بكل ما تعنيه كلمة الحياة، وإما الموت، الموت الأكيد، الصريح، الصارخ بكلمة النهاية..

تسألنى: أين أتوقع أن أجد إنسانى المفقود، الذى فر منّى وهرب بعيدًا، إلى المجهول..

فأجيبك: ربما وجدته هناك يتأمل سطح بحيرة، وترتسم ابتسامة رضا على وجهه وهو يرقب همسات عاشقين، جاءا يبوحان بسرٍّ حبهما للمياه المتهادية ويكتبان عهدهما بين أغصان الأشجار المتدلية فى حنو، وعظمة..

تسألنى: وإن لم تجديه على البحيرة الجميلة.. فأين سوف تبحثين عنه؟

فأجيبك: ربما وجدته فى ركن الطريق، ينحنى بحب على طفل صغير باك، يمسح دموعه، ويحاول أن يعثر على أمه، وبعد لحظات ترقص عينا الطفل عندما تظهر الأم فيضحك قلب الإنسان الذى أبحث عنه، وينطلق فى طريقه، سعيدًا..

تسألنى: وأين أيضًا، سوف أذهب لأفتش عنه؟

فأجيبك: سأمضى إلى الأشجار الوارفة.. الضخمة المعطاءة ذات الأغصان الكثيفة.. والثمار الكثيرة.. فحيث تسكن العصافير.. أشعر أننى سوف أجده.. يجلس تحت ظلال الشجرة الرحيمة، يتنفس بعمق رائحتها، رائحة الحقيقة التى أفتقدها كثيرًا، فهرب، وراح يبحث عنها فى بلاد الله..

وربما، وربما أحب تلك الشجرة، أحبها واستراح لها.. وقرر أن يقيم تحت ظلالها، يأكل من ثمارها.. ويعب من رائحة أوراقها.. يستعيد ذاته من جذورها الضاربة بعمق فى الأرض.. بحب وصدق..

تسألنى: افترضى أنك عثرت على هذا الإنسان المفقود.. فماذا سوف تفعلين؟..

ياه.. سيكون حتمًا لقاء العمر، لو حدث.. فى تلك اللحظة ربما تهدأ روحى المحمومة، وتسكن.. ربما يبطئ طوفان قطارى المجنون.. ربما انطفأت نار الصراع داخلى.. ربما ألتقى بالبحر العميق، فألقى إليه بأحمال ثقلت، فأحنت كاهلى..

ربما امتلأ صدرى بهواء الحقيقة .. وأخرجت رئتاى المجهدتان زفير الزيف .. ربما صادفنى قاع بلا قرار .. فأقذف فيه بكل ذكرى أليمة .، بكل أحزانى القديمة ..

وتسألنى فى تردد : وماذا لو ... ؟

فأقاطعك وبانفعال استوقفك .. لا .. لا تقلها .. لا تقل وماذا لو لم أجده .. ماذا لو لم أعثر عليه فى رحلتى إلى المجهول .. فأنا لم أفكر لحظة فى هذا الاحتمال .. فالتفكير فيه معناه أن يغادرنى الأمل .. وتخبو داخلى الحياة .. إنى راحلة إليه .. إلى إنسان فرّ من داخلى .. ولابد أن يعود ..

كلمة السر!

استيقظت مبكرة .. قبل موعدها المعتاد .. كانت الشمس ما تزال تتهادى بخيلاء لتأخذ مكانها الشامخ وسط السماء .. وترسل بشعاعها وضيائها إلى الأرض رويدًا رويدًا .. وكانت قطرات الندى تتكاثف على سطح زجاج غرفتها ..

وقفت فى الشرفة .. يغوص بصرها فى الأفق البعيد .. كانت السحب تتكاثف .. والضباب يغطى الطريق ويحجب الرؤية .. يتفجر كموجات ثلجية متعاقبة .. استغرقت فى تأمل المشهد الربانى الخلاب. أغراها إلى التوحد مع مفرداته، فوجدت

نفسها فى الطريق الهادئ.. والناس نيام وزقزقة العصافير ماتزال عذبة.. مغردة.. لم ينل من رقتها بعد ضجيج البشر وصراخ آلات التنبيه فى العربات وزجام المدينة الصاخبة.

أحسّت أنّها جزء من كل. هى.. والشمس.. والأرض.. وقطرات الندى. والسحب المتكاثفة.. والضباب الذى يغطى الطريق.. والشارع الهادئ.. وزقزقة العصافير العذبة.. الشجية، فتفجر داخلها حوار عميق.. وشعرت بمناجاة حميمة لعذاباتها..

حالة إحباط؟!.. ربما.. أسبابها تلك المسافة البعيدة بين الحلم والواقع بين ما نتمناه وما نعيشه بالفعل. حالة إحباط أخرى ربما مصدرها أشخاص حقيقيون.. تلقاهم فى رحلة الحياة.. ونخالهم رموزًا لمعان أصيلة داخلنا.. وتمضى الأيام وتظهر لنا خطأ الاعتقاد الأول.. وكلما أفسح لنا الزمن مسافة أقرب إليهم.. ابتعدنا بإحساسنا الأول.. وشعرنا بالمسافة تطول كلما اقتربنا.. وندرك أن الرموز تعيش داخلنا.. وأن من توهمناهم مجسدين لها.. إنما كانوا هم الذين اخترناهم لنلبسهم تلك الصورة.. ثم نراها ونصدق أنها فعلًا موجودة.

وشيئًا فشيئًا تتوارى الصورة التى طبعناها على هؤلاء.. وتشحب ألوانها.. وتذوب خطوطها.. وتنقطع. فيظهر الشكل

الحقيقى لهؤلاء الذين حسبناهم يجسدون أحلامًا تعيش داخلنا وبهدوء تنسحب الصورة، تلم أطرافها وأركانها.. وتأخذ طريقها مرة أخرى إلى حيث جاءت. تعود إلى هذا الكيان المدفون فى الأعماق لتختبئ وتحتمى.. وتحزن!

استوقفتها لوحة إعلانية مثبتة على واجهة صالة عرض للفن التشكيلى، فى اللوحة طفلة جميلة بريئة.. تحتضن كلبًا أبيض صغيرًا وتنطق عيناها بالحب والحنان. وتحت اللوحة كتبت عبارة باللغة الإنجليزية معناها «أينما ينعدم الحب.. أعط أنت الحب، وسوف تجد حبًا».

لدقائق لم تستطع أن تشد نظرها بعيدًا عن عينى الطفلة الناطقتين بالكثير من المعانى.. أما العبارة الجميلة فقد نفذت إلى وجدانها لتثير مشاعر مفعمة بالحب والشجن.. وفجأة برق فى قلبها شعاع من الأمل!

تبدلت حالتها من النقيض إلى النقيض. خفت قدماها لتشعر كأنها عصفور طليق.. فى طريق عودتها قررت أن تبدد كتل الضباب الجاثم على صدرها. كانت الجملة البليغة المكتوبة على لوحة الطفلة الجميلة هى مفتاح الحل. وسر المعادلة الصعبة التى طالما أجهدت عقلها فى فهم رموزها.

احتضنت عيناها اللامعتان بالأمل كل مفردات المشهد

الربانى الخلاب.. الشمس.. والأرض.. وقطرات الندى.. والسحب التى بدأت تتلاشى مع ارتفاع الشمس فى موقعها الشامخ من السماء، والضباب الذى تفتت.. وتبدد مع صحوة الصبح.. والشارع الذى حرك سكونه صحيان الناس النيام.. واسترقت السمع لتلتقط زقزقة العصافير التى خفتت مع اندلاع الضجيج. أحست بالحب لكل هذه الأجزاء. وشعرت بالتوحد أكثر وأكثر معهم جميعًا.

أصاب الهلع الجميع.. تصادمت أجسادهم وارتطمت بفعل حركتهم المفزوعة المرتبكة.. وهرع الكل فى محاولة مستميتة للهرب من قدر محتوم.. إلا هى!

صوت طقطقة.. فرقعة.. دوى انفجار ضخم.. فزع.. رعب.. حركات مذعورة.. صرخات مستغيثة.. وجوه تجمد الخوف على ملامحها.. أصوات تعلن الكارثة.. «الحقونا.. البيت وقع»!

◆◆◆

فى لحظة الفزع يغيب العقل.. يصيبه نوع من الشلل أو الخدر.. تتضارب انفعالات البشر وتتناقض.

وفى هذه اللحظات العصيبة.. ظهر سكان هذه العمارة - الذين شاء قدرهم أن يواجهوا الكارثة قبل العيد بيوم واحد - ظهروا وكأنهم قطيع شارد، مذعور!

وفى هذا الموقف الصعب بدا لكل من شاهد الموت يقترب. ثم أحس به يهجم بلا تردد. أو تراجع جمال الحياة وحلاوتها! وبرغم أنه نفسه.. نفس هذا الإنسان كان يلعن الزمن، ويعلن تمرده على هذه الحياة، ويدعو بصوت عال راجيًا الله - عز وجل - أن يأخذه بعيدًا عن هذه الدنيا التى لم ير فيها يومًا سعيدًا!

◆◆◆

«لحظة الموت».. بكل رهبتها وقسوتها.. عاشها سكان هذا البيت. تحول المبنى المتهالك ذو الطوابق الأربعة كانت آيلة للسقوط منذ زمن طويل.. إلى «بلاتوه» سينمائى كبير يشهد حركة مجموعة من البشر يلعبون أدوارًا غاية فى الغرابة.. تجاوز الخيال فى قصة نسجها القدر.. وكتب مشاهدها بواقعية شديدة!

◆◆◆

فى حجرتها الضيقة ذات الأثاث المتهالك.. جلست «رقية» على سريرها وكأن شيئًا حولها لا يحدث! جامدة.. متصلبة.. عنيدة. لم يهتز لها جفن.. لم تتحرك من مكانها. مثل جبل أصم لم تستجب لنداء جيرانها المذعورين ولم تلن لتوسلاتهم وصرخاتهم: «انزلى يارقية.. بسرعة.. البيت حيقع ياروح ما بعدك روح»!

أصرت «رقية» على البقاء.. قالت لجيرانها: «الموت أكرم من التشرد واللى ربنا كاتبه.. حيكون»!

◆◆◆

فى هدوء وسكينة وثبات أذهل الجميع، جلست «رقية» تتأمل ما يحدث، وتتلقى ردود أفعال البشر، وتتفرج على هذا المشهد الفريد الذى يتعرى فيه الناس فجأة.. يتعرون تمامًا بكل وضوح.. وبكل وقاحة أيضًا!

ابتسمت رقية ابتسامة ساخرة وهى ترى جارتها «نعمة» تطير فوق درجات السلم.. تحمل وليدها الرضيع، وتترك أمها العجوز المشلولة تصرخ مستغيثة: «لا تتركينى.. لا تتركينى يا نعمة».. وتبكى بحرقة وتقول «كده يابنتى.. هنت عليك.. هانت عليك أمك؟!».

عكست نظرة «رقية» الإحساس بالرضا عندما رأت عم «محمد» صاحب البقالة فى حارتهم يصعد بصعوبة على أجزاء السلم المتبقية بعد انهيار معظم درجاته وأجزائه الرئيسية. تابعت الرجل وهو يحاول محاولة شبه مستحيلة حتى يصل إلى صديقه الذى انكسرت ساقه منذ فترة قصيرة. فعندما علم عم «محمد» بانهيار المنزل الذى يقطن فيه صديق العمر هرع لإنقاذه من الموت. ولم يفكر أنه ربما يفقد حياته ثمنًا لهذا الموقف النبيل!

تابعتهما «رقية» بعينين دامعتين، وهما ينجوان بأعجوبة أو بمعجزة إلهية. وذرفت منها دمعة عزيزة لم يستطع أحد أن

يعرف هل كان سببها فرحتها بنجاتهما . أم كانت انفعالًا بهذا الموقف الإنسانى الذى تصرف فيه عم «محمد» بأخلاق الفرسان !!

◆◆◆

فى الطابق الثانى .. وفى الشقة المقابلة لحجرة «رقية» كان «أحمد» الشاب الذى أمضى سنوات شبابه فى شقاء الغربة .. يوفر كل مليم من عمله كعامل بناء فى صحراء بلد عربى شمسها محرقة، وجوها خانق . كان «أحمد» عائدًا قبل يومين فقط ! عاد وداخله قرار بألا يعود مهما كانت الظروف . وأقنع زوجته بالموافقة على قراره والرضا بما رزقه الله خلال سنوات الغربة . وقال لها فى نقاش حاد قبل الكارثة بيوم واحد : «والله لو أجبرتنى على العودة .. سأموت !! سأموت هناك ولن أعود أبدًا» .

فى قمة الخوف هرع «أحمد» يجر زوجته بعد أن حمل ابنته الصغيرة وأسرع إلى خارج البيت . وما أن وصل إلى بر الأمان بعيدًا عن مكان الانهيار حتى تذكر تجويشة العمر .. هذا المبلغ الذى دفع ثمنه أضعاف .. أضعاف قيمته .. دفعه من دمه .. من شبابه .. من صحته .. ومن كرامته أحيانًا !

انفجرت صرخة داخله فجأة : «لا لن يذهب شقاء عمرى .. لا .. لن أتركه .. حتى لو ..» وترك «أحمد» زوجته وابنته على الرصيف، جرى بلا تفكير .. بلا تردد وكأن قوة خفية خارقة

تسحبه إلى قدره المحتوم .. ليدفن هو .. وتحويشة العمر .. تحت الأنقاض !!

استغرقت «رقية» فى تأملاتها .. وفجأة أفاقت على صوت انفجار رهيب .. وهزة عنيفة عميقة ارتج معها جسدها، واضطرب قلبها . سقطت الجدران أمام عينيها وحولها وفوقها . وتمتمت «رقية» وهى تغمض عينيها «أشهد أن لا إله إلا الله .. وأن محمدًا رسول الله» . واستعدت لاستقبال القضاء المكتوب !

◆◆◆

احتل رقية ذهول غريب وهى تفتح عينيها لتجد نفسها راقدة فى غرفة متسعة بها عدد من الأسرة، عليها أشخاص لا تعرفهم، تلفتت حولها لتجد اثنين من الشبان برتديان ملابس الأطباء البيضاء وفتاة صغيرة تحمل سماعة طبية وتضع على رأسها «كابًا أبيض» !

مضت فترة حتى استعادت «رقية» وعيها بما حدث، واعتملت داخلها مشاعر غريبة متداخلة .. ومتناقضة . خليط من الفرحة والحزن، ومزيج من الدهشة والذهول .

أفاقت من مفعول التخدير والجراحة التى أجريت لإنقاذها .. لتقول : سبحان الله .. المكتوب .. مكتوب !

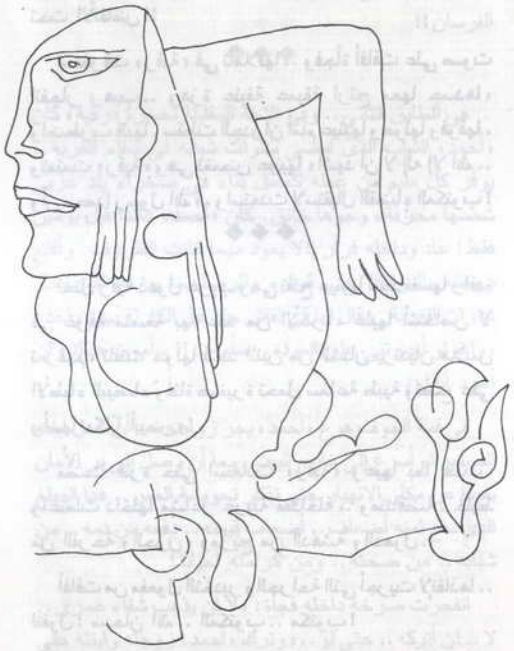

رسالة.. من قلب النار!

حبيبتى..

من وسط النيران أكتب إليك بمداد من دمى..

من تحت سعير الحرب المجنونة.. يصرخ نبض عروقى..

من قلب المأساة يتفجر غضبى.. يبكى مصيرى.

حبيبتى..

هل تسمعيننى؟ هل ما تزالين هناك فى نفس موطن حبنا؟ من يجيب عن سؤالى؟! من يخمد تلك النيران المشتعلة داخلى؟ لماذا ولدت هناك.. ولماذا ولدت أنا هنا؟ لماذا جئنا فى هذا الزمان العجيب.. الغريب!

لماذا يولد الحلم .. ثم يوأد حيًا ؟! لماذا أحببتك ؟ لماذا احتواك القلب بين ضلوعه .. واحتوى ما ينتمى إليك .. أو تنتمين إليه .. أصبح وطنك هو وطنى .. وأرضك هى أرضى .. وحلمك .. هو حلمى .

ثم .. ثم ماذا يا حبيبتى .. ياشريكة الصمود من أجل أعظم حب .. ثم ماذا يامن وقفت أمام الرياح «العاصفة» كثيرًا .. وتحملت طويلًا ليعيش هذا الحب .

أتنكر .. طول الوقت .. وسط الجحيم أظل أتذكر .. أتنكرك محاربة قوية تدافع عن قناعة .. تتشبث .. تترافع باستبسال من أجل انتزاع الحق العادل المشروع فى الحب .. والحياة هل تنكرين ؟!

قالوا لك : لا .. فقلت : بل نعم .. وألف نعم لماذا ترفضونه .. تقولون : غريب .. أنتم مخطئون إنه عربى .. مسلم .. يسكن قطرًا عربيًا شقيقًا إنه قريب .. قريب جدًا .

وسخروا منى يا حبيبتى .. قالوا .. هل يهوى قلبك السفر .. هل رحل على جناح «كيوبيد» إلى حيث الحبيبة ؟ ألم تجد على شاطئ نهر الفرات من تخطف الفؤاد وتستولى على الوجدان ؟!

وقلت لهم يا حبيبة .. إنها هى .. ولن يكون لى غيرها فالحب لا يعرف حدودًا لا يؤمن بالمكان .. ولا يعترف بالزمان ، وحبيبتى عربية .. مسلمة .. بلدها هى بلدى .. ووطنها هو وطنى .

فزنا يا حبيبة العمر بعد معركة طويلة . انتصر الحب ..

واقتنع الجميع .. أهلك فى الكويت .. وأهلى فى العراق .. وطوقت أصبعك الرقيق بخاتم يحمل اسمى .. وارتعشت أناملك وأنت تضعين خاتم الرباط المقدس وعليه أجمل حروف اللغة : اسمك .

وانتزعنا اعتراف الناس .. كل الناس بحبنا الجميل .. ورحنا نغزل الأحلام ونبنى قصور الآمال ونعزف همس أحاسيسنا أنغامًا تعلو .. وتعلو .. فيتردد صداها بين السماوات .

وعشنا أحلى أيام العمر فى انتظار اليوم الموعود .. يوم اختطف أميرتى .. وأطير بها إلى عشها .. عش حبنا .. ومستقر حياتنا .

وفجأة .. صحوت يومًا يا حبيبتى على كابوس مخيف .. يحتوينى يطبق على أنفاسى .. شعرت به يقبض روحى .. يغتال الحلم الساكن داخلى .. رأيت ماردًا جبارًا يختطفك من بين ضلوع القلب .. ويوارى صورتك الحبيبة وسط كتل من ضباب !

وأفقت على صرختى مدوية .. لا .. لا تأخذها منى .. ولا تغتل حلمى .. لا تقتل الحب داخلى .. لا تهزم إيمانى .. ولا تزعزع قيمى .. إننى أحب فتاتى العربية .. وفتاتى تحبنى .. فدمائى أيضًا عربية . والدم يستحيل أن يصير ماء .

صرخت يا حبيبتى .. وما أزال أصرخ وسط جحيم النيران .. أنادى بأعلى صوتى يا أصحاب الضمائر المنتحرة .. يا تجار المبادئ .. يامغتالى القيم .. ياباحثى عن زعامة ..

أفيقوا قبل أن يهدم المعبد علينا جميعًا .. إنقذوا بقايا الحب من الحريق .

وسأظل أصرخ .. وسط النيران .. سأظل أكتب إليك بمداد من دمى .. سأظل أستحضر صورتك من قلب الجحيم .. والدمار .. سوف أصرخ ولن أسكت يامن تآمرتم على حبنا .. سأظل أحبها ..

يا حبيبتى .. إنى أحبك !

تسلل الضوء المنبعث فى الغرفة إلى عينيه ، فتحهما قليلًا ثم أسدل جفنيه مرة أخرى بسرعة ، وأعاد الحركة نفسها لا إراديًا ، كأنه يحاول تفادى الضوء .. استيقظت حواسه فجأة وهو يتلفت حوله ، ويجول بعينيه فى هذا الجو الغريب الذى تنبه ليجد نفسه فيه .. والوجوه الكثيرة الملتفة حوله فى ذعر والعيون الحمراء التى يبدو عليها علامات الإرهاق والسهر .. وآثار الدموع !!

ران الصمت الكامل على غرفته بالمستشفى .. وانطلقت تساؤلاته فى نظرات صامتة ، صوبها إلى عيون محددة فى محاولة لأن يفهم .. ماذا حدث ؟ اخترقت نظراته الأولى عينى

أمه .. فقد كان وجهها هو أول ما وقعت عليه عيناه .. كان الهلع والفزع يحيلان وجهها الملائكى إلى لوحة تحمل خطوطها كل معانى الحزن .. وتعكس خطوطها مشاعر البؤس والرجاء .

وتسمرت عيناه فى محطته الثانية .. ليستغرق حواره الصامت عندها وقتًا طويلًا .. أوقفته ملامح وجه رجل تنطق بالألم فى تماسك وعينان تطلقان صرخات مكتومة فى لوعة . ومشاعر صاخبة تثور فى قلب الرجل كالبركان .. وتختبئ داخله تحت ستار قاس من المقاومة للانهيار والسقوط .

كان هذا الوجه .. هو وجه أبيه .. رجل تعدى الخمسين قليلًا .. عاش حياة عادية بكل المقاييس .. أمضى سنواتها بصبر وقناعة ورضا بالمكتوب . كان موظفًا بسيطًا مكافحًا .. يقاتل من أجل أن يحقق المعادلة الصعبة كل شهر . أصعب معادلة اقتصادية يعجز عن حلها أعظم خبير اقتصادى . ويعيد ترتيب أولويات طلبات البيت والأولاد .. ثم يعود فيلغى كل ما يمكن إلغاؤه ويؤجل ما يمكن تأجيله .. حتى يعبر بالسفينة إلى بر الأمان .. أول كل شهر .

كل الطلبات كان من الممكن تأجيلها إلا طلبات «أحمد» .. فهو الملك المتوج .. المتربع على العرش فى قلب أبيه .. وهو الصورة التى حقق فيها كل أحلامه وأمانيه . فهو لم يعرف فى حياته أى قفزات مادية .. أو انتصارات أدبية كان مجرد موظف .. ينتظر راتبه أول كل شهر .. ويستغرق تفكيره حساب العلاوة القادمة والأجر الإضافى .

وجاء «أحمد» لم يكن ابنه الوحيد .. إلا أنه كان الأحب والأقرب إليه دائمًا . فقد أعطاه هذا الشاب الصغير ما افتقده فى حياته . أعطاه الاحساس بالتميز وهو يفوز ببطولات الجمهورية فى ألعاب القوى منذ طفولته المبكرة وأعطاه الشعور بنشوة النصر الأدبى الذى لم يعرفه الأب طوال حياته .. وأعطاه الإحساس بالاختلاف والتفرد الذى لا يعرفه سوى إنسان يقبل التحدى، ويجتازه بنجاح .

وانطلق الشاب الرياضى «أحمد» من نجاح إلى نجاح . ومن الفوز ببطولة إلى الاستعداد لاجتياز بطولة أكبر .. وتحد أصعب . وبقدر نجاحه وشهرته فى عالم الرياضة كان متقدمًا فى دراسته، ومحبوبًا من جميع زملائه ومدرسيه .

ولم تكن عبقرية «أحمد» الرياضية والدراسية هى فقط نقطة الجذب الوحيدة فى شخصيته . كان هناك شىء ما لا يعرف أحد له تفسيرًا . يجذب أى إنسان إلى «أحمد» من أول لقاء . قالوا إنه شهرته .. وقالوا إنها أخلاقه .. ولكن تكرار هذا الحب الذى يتفجر دائمًا بين «أحمد» وأى إنسان يصادفه جعل الجميع يؤمنون بأن ما يحدث هو شىء من عند الله .. وقبول عجيب يتميز به «أحمد» عند كل الناس .

وفجأة انتهى الحلم . حلم الأب .. والأم والإخوة . حلم الأصدقاء والأحباء . حلم المدرسين والمدربين والمنافسين .. كل من اقترب من «أحمد» .. وأحبه !!

كان البطل الصغير يستعد لدخول بطولة الجمهورية التى حصل عليها لخمس سنوات متتالية، وكانت كل القلوب من حوله مشحونة بالقلق والحماس والخوف والتمنى. أما هو فكان منطلقًا كعادته.. ممتلئًا بالنشاط والحيوية والأمل.

فى طريق العودة من مدرسته أخذ الأتوبيس الذى يعبر به المسافة بين المدرسة والبيت مارًّا بالنادى. وفى المحطة توقف الأتوبيس. وتأهب «أحمد» للنزول أمام النادى ليلحق بموعد التدريب.

فى لحظة مجنونة انتهى كل شىء. انشقت الأرض عن سيارة يقودها بهيستيريا شاب متهور كالصاروخ انطلقت إلى يمين الاتوبيس لحظة نزول «أحمد» وهوى البطل طريحًا تحت عجلات السيارة المجنونة لتكتسى أرضية الشارع بالدماء ويتجمع المارة فى ذهول.. وتتصاعد الصرخات فى ذعر. وينقل «أحمد» إلى المستشفى بين الحياة.. والموت!

ويتم إنقاذ «أحمد» بأعجوبة.. ويعلن الأطباء أنه لن يستطيع الوقوف أو السير بعد الآن إلا على كرسى متحرك.. فقد أصيب بكسر فى العمود الفقرى.

أفاق «أحمد» من استغراقه فى عينى أبيه.. على صوت رخيم حزين يقول:

ابنى الحبيب.. حمدًا لله على سلامتك.. لا تحزن..

ولا تقلق.. فلن أدعك لحظة واحدة وحدك.. ولن ينساك الله.. فهو لا ينسى عباده المؤمنين.

امتدت يد «أحمد» لتمسح دموع الرجل. وسأله بنبرات منكسرة يائسة:

هل سأعود إلى الملعب مرة ثانية يا أبى أم أن كل شىء قد انتهى؟

- انهارت قلاع المقاومة داخل قلب الأب.. ليجهش فى بكاء طويل ولم ينبس بكلمة!

التلميذة والأستاذ!

رمقتها أمها بنظرة ذات مغزى.. وهى تقلب فى خزانة فساتينها.. تملؤها الحيرة الممزوجة بسعادة خفية تنبئ عن استعداد خاص للقاء أكثر أهمية!

سألتها الأم عن المحاضرات فى جدول الكلية اليوم. ولم يكن سؤالها عابرًا. قالت «هند» بحماس: محاضرات اليوم كثيرة.. وهامة.. أهمها طبعًا محاضرة الدكتور «سمير».. دكتور مادة الفلسفة الذى حدثتك عنه.

هتفت «هند» وهى تخرج فستانًا أرجوانيًا من خزانة الملابس. هذا هو إنه أجمل فستان عندى.. أليس كذلك يا ماما؟!

ازدادت عين الأم اتساعًا وهى تراقب تصرفات «هند»

التلقائية .. وامتلأ ذهنها بعشرات الأسئلة حول الدكتور «سمير» من يكون؟ ما هى ظروفه؟ هل هو شاب.. أم أنه فى منتصف العمر.. هل هو رجل عجوز؟ هل هو متزوج أم أعزب؟ وأخلاقه.. هل هى مستقيمة؟.. أم أنه مغرم بلعبة اجتذاب الشابات الصغيرات.. والقيام بدور الـ«دون جوان»!

لم تستطع الأم القلقة أن تلقى بأسئلتها بشكل مباشر إلى صغيرتها.. ولكنها لم تتمكن أيضًا من طرد هواجس الحيرة والخوف من نفسها.. فعلى الرغم من ثقتها فى ابنتها.. ويقينها أنها أحسنت تربيتها وتعليمها القيم ومبادئ الأخلاق.. إلا أنها كانت تعلم أيضًا أن قلب «هند» لا يزال قلب طفل ينبض بالبراءة.. ولا يؤمن إلا بالخير! كانت تعرف ابنتها أكثر من أى إنسان آخر. إنها كتلة حية من النقاء تسير على قدمين. وكانت الأم التى خبرت الحياة ترتعد خوفًا من ارتطام سطح كتلة النقاء.. بحبال الشرور التى لابد أن يصطدم بها الإنسان فى حياته!

آثرت الأم الصبر والتأمل من بُعد لما يحدث حتى لا يأتى تدخلها المتسرع المندفع بأثر عكسى.

واستمرت «هند» تقطع الأيام بسعادة لم تشعر بها فى حياتها. وحماس وحيوية لم يسبق أن أبدت مثيلًا لهما فى اهتمامها بأى شىء. أصبحت الكلية هى محور حياتها.. عالمها الخاص الذى تسبح فى فضائه أحلامها. أما هو.. فقد أصبح الشعاع الحقيقى

الذى يحرك كل طاقاتها للعمل.. والدراسة، والمفجر.. الباعث على الانطلاق بآمالها الكبيرة فى الحب.. والحياة.

تصدرت مادة الفلسفة قائمة اهتماماتها.. سهرت الليالى تقرأ كل المراجع التى أوصى الدكتور بالرجوع إليها. أصبحت خبيرة فى الوجودية.. والبراجماتية تعرف سارتر.. وديكارت وتحفظ عن ظهر قلب اراءهما الفلسفية وأسماء مؤلفاتهما. فقد كان كل حلمها أن تحظى برضا الدكتور «سمير» وإعجابه.

كانت تجلس فى محاضرته فتشعر بنفسها تغوص فى أعماق هذه الشخصية الفذة.. وتحس بأن حديثه ليس كلامًا مرتبًا فى جمل توصل معنى.. بل كانت تستقبله كشعاع ينفذ من خلال عينين تلمعان بذكاء مبهر.. ليخترق عقلها الذى ما يزال بكرًا.. نهمًا إلى معرفة الحقيقة.. والوجود!

أكثر من عريس تهافت للحصول على رضاها. كان الرفض المبدئى ـ دون الدخول فى تفاصيل أو شرح لأسباب الرفض ـ هو ردها الوحيد!

اشتعلت الأم غضبًا.. تفجر صبرها الطويل فى لحظة مجنونة. وحدثت المواجهة التى تأخرت كثيرًا بين الأم والابنة!

فوجئت «هند» بأن أمها تعرف القصة من البداية.. وأنها كانت تنتظر بصبر لتعطى التجربة وقتها الكافى لتكتمل. وقالت أم «هند» بعينين باكيتين إنَّها كانت على ثقة بأن الستوات السابقة كفيلة بأن توضح لابنتها كل شىء. كانت تنتظر أن تعمق

التجربة من نظرة «هند» للأمور . وتزيدها الخبرة نضجًا . لتكون هى صاحبة القرار الصائب لمستقبلها .

ولكن فجأة .. انفجر البركان المكتوم فى صدر الأم .. وتصاعدت النيران المحمومة من قلب يحترق !

قالت لها : إن هذا الحب الذى تتوهمينه ليس حبًا .. وهذا السراب الذى تخلقينه وتلهثين وراءه ليس إلا طريق الدمار الذى ستهوى فيه حياتك إلى أعماق سحيقة . إنه لا يحبك .. بل يحب أن يكون محبوبًا مبهرًا لتلميذاته اللاتى يصغرنه بعشرين عامًا .. إن هذا يرضى غروره .. وأكملت الأم حديثها الغاضب .. وأنت أيضًا لا تحبينه .. أنت منبهرة بشخصيته الجذابة .. بذكائه العبقرى .

لم تنم «هند» فى هذه الليلة .. أمضت ساعات طوالًا فى استرجاع الشريط من بدايته .. منذ اللحظة الأولى التى التقت فيها بأستاذها .. كان اليوم الأول لها بالجامعة .. وكانت الفرحة تحيلها إلى فراشة رقيقة .. خفيفة .. رشيقة .. واشتعلت الشرارة منذ اللحظة الأولى عندما اصطدمت نظراتها البريئة .. المنطلقة بحب للحياة .. بنظرة عميقة .. ثاقبة .. نافذة من عينى الأستاذ !

سر السجين عبد العزيز!

ارتفع صوت الشاويش النوبتجى المميز .. ليدوى بين أحد عنابر الرجال بسجن القناطر .. تسابق المساجين ليلتفوا حوله فى لحظة مشحونة بالقلق .. نابضة بالترقب .. متشبثة بالأمل ..

تسمرت عيونهم جميعًا على شفتى الشاويش .. كأن كلا منهم يحاول أن ينتزع اسمه قبل أن ينطق به النوبتجى .. بينما بدأ يردد هو بصوت عال خال من الإحساس أسماء المساجين الذين حملت إليهم بوستة السجن خطابات الأهل والأحباب ..

لحظات قليلة .. لكنها عصبية .. تتجسد فيها كل المعانى الإنسانية فى مجموعة من البشر .. فالكل تتسارع نبضات قلبه ترقبًا لسماع اسمه .. حيث تصل درجة توتره إلى منتهاها ..

يسمع سجين اسمه فتنفرج كل ملامح وجهه مهللة فى صمت بليغ يكاد يصرخ من الفرحة .. وينتظر آخر حتى يفرغ الشاويش من نداء الأسماء ولا يسمع اسمه، فتحتل قلبه سحابات من الحزن الكثيف .. تجثم على صدره .. وتنفذ إلى عينيه لتتجمد داخلهما كبحيرات من دموع مكتومة ..

◆◆◆

سجين واحد فى العنبر كله لم يصله خطاب منذ سكن هذا المكان الكئيب .. عامان كاملان أمضاهما داخل هذا العنبر لم يسأل عنه مخلوق . إنه «عبد العزيز» السجين الذى حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة فى جريمة قتل ثأر قديم لم يستطع الإفلات منه ..

كان مدرسًا ممتازًا، هادئ الطبع لم يقتنع يومًا بهذه الفكرة الملعونة .. وتعود طويلًا هذا الميراث الأحمق .. حتى أدرك فى النهاية أنه قدره .. الذى لا فكاك ولا مهرب منه ..

بعد محاولات مستميتة فشل فى الهروب من هذا المأزق، وكأنه القدر المحتوم .. فعلها، ولكنه دفع الثمن غاليًا .. ألقى فى السجن، افترق عن زوجته التى كانت كل شىء له فى الدنيا .. حبيبته .. صديقته .. وشريكة عمره. أما أفدح ثمن دفعه لجريمته .. فكان حرمانه من أغلى الناس عنده .. ابنه «محمود».

«عبد العزيز .. جواب عشانك»..

ما إن نطق الشاويش النوبتجى باسم «عبد العزيز» حتى تفجر شلال من الفرحة .. بمنتهى التلقائية داخل العنبر .. وتدفقت العواطف النبيلة بين هؤلاء الذين جمعتهم الخطيئة .. وجدران السجن .. رقص الجميع من أجل عبد العزيز .. أخيرًا جاءه خطاب .. أخيرًا سوف تتبدد سحابة الحزن الراقدة فى عينيه ..أخيرًا ستزوره الفرحة .. ويتسلل إلى قلبه الإحساس بالدفء .. بعد أن تجمد بصقيع السجن عامين كاملين ..

◆◆◆

فى ذلك اليوم عاش هذا العنبر فرحًا حقيقيًا، فقد كان منظر الرجل بائسًا لدرجة تكسر القلوب .. فكلهم يتلقون رسائلهم كل أسبوع .. إلا هو .. فكر بعضهم فى البحث عن عنوان أهله .. زوجته .. أصدقائه، ويرسلون إليهم يستعطفونهم أن يرأفوا بحال الرجل .. ويتذكروه حتى ولو ببضع كلمات على ورقة ربما بددت بعضًا من أحزانه .. أو خففت من جبل آلامه .. ولكن عبثًا .. ذهبت كل محاولاتهم أدراج الرياح ..

التف الجميع حول «عبد العزيز» يتأملون فرحته ويسألونه من صاحب الخطاب .. لابد أنها زوجته .. من المؤكد أن لديها عذرًا منعها من الكتابة أو ربما كتبت من قبل ولكن الخطابات لم تصل .. عشرات الأسئلة انطلقت من زملاء العنبر بسجن الرجال بحب حقيقى تحمل إلى «عبد العزيز» التهنئة أكثر مما تحمل التساؤل ..

◆◆◆

منذ ذلك اليوم انتظمت الخطابات القادمة إلى «عبد العزيز».. المظروف الأزرق المميز بين كل الخطابات.. الحبر الأسود.. الخط الرفيع المنمق.. لا تخطئه العين من عشرات الخطابات..

ومنذ ذلك اليوم أصبح السجناء ينتظرون خطاب «عبد العزيز» بقلق يقترب من قلقهم على خطاباتهم الشخصية. فكم اعتصرهم بؤس الرجل.. وكم رقت قلوبهم لمحنة زميلهم السجين.. وكم كانت فرحتهم عندما بدأت خطاباته تتوالى وتنتظم..

◆◆◆

ذات ليلة بعد ساعات من منتصف الليل استيقظ أحد السجناء شعر بعطش فقام من فراشه وانحنى ليحضر كوز المياه من أسفل سريره.. وبينما كان يتأهب لمعاودة نومه استلفت نظره ضوء شمعة يهتز خافتًا فى الركن البعيد المواجه لسريره.. وبدافع فضول من يعيشون وراء الأسوار.. تسلل على أطراف أصابعه ومن خلفه مد رقبته دون أن يشعر به ليكتشف سر ما يحدث على ضوء الشمعة.. المهتز!

كان «عبد العزيز» يجلس فى هدوء.. مستغرقًا فى الكتابة.. كأنه أديب يعيش فى صومعته الخاصة أو برجه العاجى.. يكاد يتوحد مع أبطال قصصه وينفعل بأحداثها..

باندهاش وقف السجين الفضولى يرقب «عبد العزيز» يسيطر عليه التعجب والاستغراب.. لا يستطيع أن يفهم أو يفسر ما يراه.. فالرجل يكتب.. بينما تنساب على وجهه دموع غزيرة.. وكأنها شلال متفجر من الأحزان..

مرت دقائق قبل أن يكتشف السجين السر.. ففكت طلاسم هذا اللغز المحير عندما امتدت يدى «عبد العزيز» إلى حقيبة صغيرة أسفل السرير.. فتحها.. وأخرج منها مظروفًا أزرق اللون. طوى الورقة التى كتبها.. ووضعها داخل المظروف.. ثم بدأ يكتب العنوان على المظروف.. بقلم حبر أسود: «القاهرة.. سجن القناطر الخيرية.. «رجال».. السجين عبد العزيز .....».

تسمر الرجل مكانه بعد أن احتواه صمت رهيب.. لكنه تمالك نفسه وتسلل عائدًا فى هدوء إلى فراشه دون أن يشعر به أحد وقد لفته سحابة من الحزن العميق..

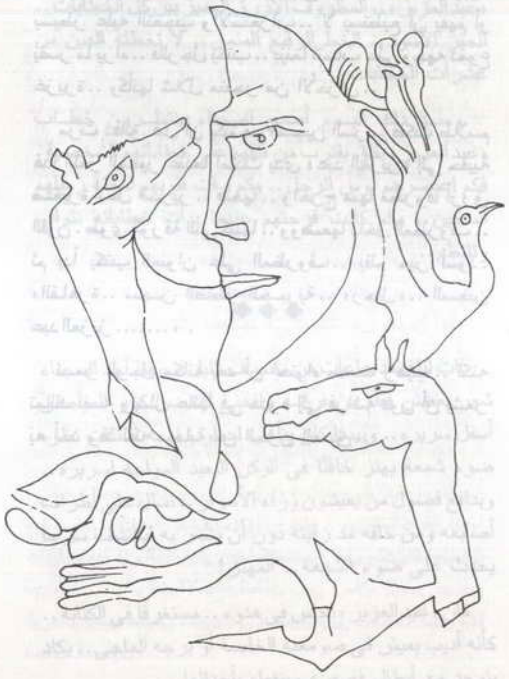

اعترافات لص

كانت المفاجأة تفوق كل توقعات ضابط المباحث عندما داهم منزل المجرم الذى تمنى أن يقع فى يديه بعد ثلاثة أشهر من البحث المستمر .. والتحريات المكثفة ..

فما إن طرق ضابط المباحث باب الشقة حتى وجد أمامه شابًا تبدو على ملامحه علامات الطيبة والبؤس .. يقترب عمره من الثلاثين يقف أمامه ويعترف بلا أى مقاومة .. أو حتى انتظار لسؤال الضابط !

– نعم سرقتها .. سرقت كل هذه الأشياء ولكننى أقسم لك إننى لست مجرمًا بطبعى .. ولم أحب يومًا أن أقف هذا الموقف .. ولكنه القدر .. وأحكام الحياة !

وأجهش «جمال عبد العال».. حرامى المساكن الذى دوخ كل ضباط مباحث امبابة على مدى شهور طويلة.. فى بكاء مرير.. وبدأ يحكى للضابط حكايته.. عن أول يوم امتدت فيه يداه لترتكب جريمة سرقة!

ـ قال: لن أنسى هذا اليوم أبدًا.. كان طفلى الرضيع يبكى من الجوع.. وكانت أمه.. زوجتى قد نزلت إلى عملها بالمستشفى.. فقد كان لديها «نبطشية» فى هذه الليلة التعسة.. اضطرت للنزول مرة أخرى إلى العمل كممرضة.ضاقت بنا أسباب "حياة بعد أن لجأ صاحب العمل فى البلد العربى الذى كنت أعمل لديه إلى الاستغناء عن بعض العمال.. وعدت إلى مصر خالى الوفاض بعد شهور قليلة لم تكف حتى تسديد ديونى التى استدنتها من أجل السفر.

فى هذه الليلة نسيت زوجتى أن تترك لى نقودًا.. وفتحت علبة «اللبن الصناعى» لأجدها فارغة واشتد بكاء طفلى الرضيع ليخترق قلبى.. ويهزم قدرتى على التحمل.

وضعته على السجادة فى أرضية الغرفة ونزلت كالمجنون لا أعرف ماذا أفعل.. وكيف أوفر له الرضعة التى يصرخ من أجلها.

وبينما أنا أمشى فى الشارع لا أدرى أين أذهب.. ولا ماذا أفعل.. مررت بصيدلية ورأيت فى نافذتها نفس نوع «اللبن الصناعى» الذى يتناوله ابنى.. وقفت مكانى.. تسمرت قدماى.. وتعلقت عيناى بعلبة اللبن.. خلف النافذة..

وأثناء وقوفى وجدت صاحب الصيدلية يغلق بابها ليؤدى الصلاة.. واقتربت قليلًا من الباب.. ومددت يدى أعبث فيه.. وفجأة انفتح الباب.. فدخلت بسرعة وتناولت علبة لبن.. وقبل أن أخرج جذبت درج الخزانة فوجدت خمسة وثمانين جنيهًا فوضعتها فى جيبى وخرجت مهرولًا إلى البيت لأعد وجبة لابنى «رامى».

ولم أشعر بنفسى.. ولا بفداحة ما عملت إلا عندما استسلم صغيرى للنوم أخيرًا بعد أن تناول الرضعة.. كأنه ملاك جميل.

وأخذت أنظر إلى وجهه الملائكى وهو نائم.. ودموعى تنساب فى هدوء.. وفجأة بدأ الشريط المفزع بمشاهده الغريبة يتتابع أمامى لأرى نفسى لأول مرة مجرمًا سارقًا!

ونظرت إلى النقود فى دهشة.. وتعجبت كيف امتدت يدى لتسرق عرق إنسان آخر؟! وظللت لأيام فى حالة اكتئاب وتعاسة لا توصف.. أجتر ذكريات الأيام التى كنت فيها واحدًا من أمهر الخراطين فى ورش الميكانيكا.. والمكسب الحلال الذى كنت أحصل عليه ويكفينى أنا وزوجتى وكيف كنا نحمد الله على هذا الربح القليل الذى يسترنا.

ثم ألعن اليوم الذى تضخمت فيه طموحات زوجتى التى كانت قانعة وسعيدة بحياتنا الهانئة وطلبت منى بإلحاح أن أسافر للعمل فى البلد العربى الذى سافر إليه زوج جارتنا.. وأحضر لها منه كل الأجهزة الكهربائية الحديثة.. والملابس المستوردة التى امتلأ بها بيتها.

وأتذكر أيضًا كيف استدنت حتى أوفر ثمن تذكرة الطائرة وأستخرج الأوراق المطلوبة وأدفع المبلغ الذى طلبه منى مكتب السفر.. كل هذا من أجل زوجتى التى أفسدها طموحها.. ودمر حياتنا.. وأتذكر كيف سافرت وبدأت أعمل ليلًا ونهارًا لمدة شهرين.. ولكن سوء حظى جعلنى أواجه أصعب موقف يمكن أن يقابله إنسان في الغربة.. فقد تعرض صاحب العمل الذى كنت أعمل لديه لأزمة كادت تؤدى إلى إفلاسه واضطر إلى الاستغناء عن عدد كبير من العمال.. وكنت أنا واحدًا منهم!

رجعت إلى مصر أجر أذيال الخيبة بعد أن تركت عملى فى مصر أملًا فى الثراء فى هذا البلد العربى - ولكن أنت الرياح بما لا تشتهى السفن!

ونزلت زوجتى للعمل بعد سنوات طويلة مكثت خلالها بالبيت بعد زواجنا.. فلم يعد لى دخل ثابت يوم أعمل وعشرة أيام بلا عمل!

وفى هذا اليوم المشئوم.. الذى لا أنساه.. تحولت إلى مدرم.. وامتدت يداى لأسرق علبة لبن لابنى ولأبدأ فصلا جديدًا فى حياتى.. فصلًا كتبت كل صفحاته باللون الأسود.. بعد أن تحولت من عامل إلى مجرم متخصص فى سرقة المساكن!

والآن.. لن تكفى دموعى.. ولن يغفر لى إحساسى بالندم ما فعلته.. ولكن.. أرجوك صدقنى.. أنا لست مجرمًا.

فى خشوع تام وقفت بين يدى الله.. تصلى.

كن كثيرات ينتظمن فى صفوف.. يجاهدن من أجل الحصول على موضع لأقدامهن فى الغرفة الضيقة.. الرطبة التى خصصها السجن لتكون «مصلى» للسجينات..

انتهين جميعًا من الصلاة.. وهرعن كل واحدة إلى العنبر الذى تسكن به.. حسب الجريمة التى ارتكبتها.. فواحدة تذهب إلى عنبر القتل.. وأخرى تأخذ طريقها إلى عنبر السرقة.. وثالثة تتجه إلى عنبر التزوير والتزييف.. أما أكثر السجينات عددًا فيقمن بعنبر المخدرات والآداب..

الكل ذهب.. وبقيت «زينب» مكانها بالمصلى.. تتمتم بدعاء

هامس .. بينما يرتجف جسدها كله .. ثم يختنق صوتها بالبكاء .. تحاول السيطرة على نفسها .. فتفشل .. وتنفجر فى بكاء مسموع ..

بصوت حاد خال من الإحساس صرخت السجانة فى وجه «زينب» :

ـ ياسلام .. ياست الشيخة .. قومى فزّى على عنبرك .

بانكسار واستسلام قامت «زينب» تجفف دموعها الغزيرة التى غطت وجهها . سارت عبر الفناء الواسع لتصل إلى هذا المكان البغيض .. عنبر الآداب .. تحملها ساقان متخاذلتان .. وقلب مهزوم ..

كانت «ناهد» جارتها التى تسكن السرير الأعلى ، ترقبها منذ نقلت قبل أيام من عنبر «أمهات الأطفال» إلى هذا العنبر «عنبر الآداب» وكانت تعلم أن ابنتها الرضيعة التى لم يتجاوز عمرها أيامًا ماتت .. ولذلك لم يعد ممكنًا أن تبقى فى عنبر الأمهات ..

مرت أيام قليلة قبل أن تصاب «زينب» بحمى «النفاس» استيقظت «ناهد» مذعورة على صوت أنينها وهذيانها .. أحاطتها فى أيام مرضها بقلب يفيض حبًا وحنانًا ..

فى وقت المرض والمحنة عرفت «ناهد» القصة وانفطر قلبها لمأساة صديقة الألم .. فهذه الفتاة البريئة ساقها القدر إلى مصير غريب .. إنها لم تعرف الخطيئة .. ولا سارت فى طريق الليل والدعارة .. ولكنها وقعت فى هذا الفخ الكبير عندما أحبت إنسانًا بلا ضمير ..

كان ابن عمها «محمد» الذى فتحت عيناها لتجده صديق طفولتها . ألقى الحب بذوره فى القلب البكر والعقل الصافى البرئ .. وكبر الطفلان وتفجرت العاطفة وسط اشتعال المشاعر فحدث ما قلب الأمور كلها .. إلى بداية المأساة .

شعرت «زينب» الطفلة الصغيرة بكيان يتحرك فى أحشائها .. أدركت المصيبة فهرعت إلى شريكها وحبيبها .. بحثت عنه فى كل مكان .. فلم تجده عرفت أنه سافر فجأة إلى بلد عربى يبحث عن عمل ..

قفز الرعب فى قلبها .. كادت تفقد عقلها .. لم تدر بنفسها إلا عندما وصلت البندر بعد ساعات طويلة من السير والجرى فى الطريق .. بلا هدى ..

وسط الضياع انهارت «زينب» .. وقعت فى يد امرأة بلا قلب .. اقنعتها بالبقاء عندها بالبيت حتى تتصرف وتنقذها من هذه المصيبة التى تتحرك فى احشائها ..

ولم تكن هذه المرأة إلا شيطانة فى صورة إنسان استغلت الطفلة الصغيرة أبشع استغلال ..

وكانت النهاية محتومة .. تم القبض عليها فى منزل الشيطانة بصحبة رجل قمىء المنظر .. متوحش النظرات .. وسط ذهولها تم كل شىء .. أقتيدت إلى القسم .. ثم النيابة فالسجن .. وحكم عليها بستة شهور سجنًا ..

لم يكن فى ذهنها إلا هذا الطفل البرىء الذى سيلقى العذاب فى أول لقاء له مع الحياة ..

ولكن شاءت إرادة الله أن يبقى الجنين حيًا حتى تمت الولادة..

وفى مستشفى السجن.. ظلت أسبوعًا تتطلع إلى وجهه الجميل.. البرىء.. ويعتصرها الصراع.. تخترق قلبها صرخاته طلبًا للطعام.. ثم يعلو إحساسها بالخوف عليه من المصير الأسود الذى ينتظره فيتحجر هذا القلب ويقسو.. وتتركه يبكى.. ويبكى دون أن تمد إليه ثديها بالطعام..

ذبل الولد.. وهفت.. ضوْل جسده ونحل.. خفت صراخه مع الأيام.. وفى يوم من أيام الأسبوع الماضى.. لفظ الوليد آخر أنفاسه.. مات.

دموع رجل

انسابت دموع الرجل.. لترتسم على وجهه ـ فجأة ـ ملامح الانكسار.. ويتحول إلى ما يشبه لوحة ناطقة.. تنبض خطوطها بالشجن الحزين!

تقدم الطبيب الشاب فى اتجاه السرير الذى يرقد عليه الرجل ليسأله بتعاطف شديد.. لماذا تبكى يا عم «محمود»؟! هل تشعر بألم.. ألم يحدث القرص الذى أعطيتك إياه منذ قليل أى تحسن بعد؟!

ظل الطبيب الشاب يسأل.. والرجل مستلقٍ على فراشه يتفحص وجه الطبيب الصغير فى حنان. لم ينطق كلمة واحدة.. وكأنه يشعر بأن ما ينوء به القلب أكبر من الكلمات.. وأن دموعه ـ ربما ـ ما تزال هى الشىء الوحيد الذى يذكره بأنه إنسان!

ربت عم «محمود» بكفه على يد الدكتور أحمد ـ الطبيب المقيم بسجن القناطر .. وقال له .. لا تشغل بالك بى .. سوف أكون على ما يرام .. لا تقلق علىّ يا ...

وتوقفت الكلمات فى حلق عم «محمود» .. كادت الكلمة تخرج منه بشكل لا إرادى .. لكنه تدارك الموقف فى آخر لحظة .. فالدكتور «أحمد» قطعًا، لا يشرفه أن يناديه سجين يقضى عقوبة وراء الأسوار بكلمة «ابنى»!!

◆◆◆

لم تفارق نظرات عم «محمود» الحزينة .. وعيناه اللتان يطل منهما الأمل مخيلة د. «أحمد». كان منظر الرجل وهو يبكى موجعًا .. ورؤية شفتيه ـ اللتان ترتعشان فى انكسار وضعف ـ مؤلمة .. قرر د. «أحمد» أن يترك لعم «محمود» مبلغًا من المال فى «الأمانات» بالسجن .. ربما يكون فى ضائقة مالية ولا يريد أن يبوح بذلك ..

وفى الصباح أخبرت الممرضة عم «محمود» بأن هناك مبلغًا باسمه فى «الأمانات» .. وأنه يستطيع أن يطلب منه ما يريد، خفق قلب عم «محمود» تأثرًا من موقف الطبيب الشاب وانسابت دموعه من جديد!

دخل د. «أحمد» إلى العنبر الذى يضم سرير عم «محمود» .. كانت عينا الرجل تتبعان الطبيب الشاب بحب شديد .. وعندما وصل إلى سريره وأمسك بيديه ليقيس النبض .. تشبث المريض السجين بكلتا يديه بيد الطبيب ليقبلها .. فشد د. «أحمد» يده

بسرعة .. وقال .. «أستغفر الله يا عم «محمود» .. ماذا فعلت؟ إننى لم أفعل شيئًا .. ألست فى مقام ابنك «أشرف»؟!.

◆◆◆

وكأنه ضغط على جرح لم يندمل بعد .. فما أن سمع عم «محمود» اسم ابنه الوحيد «أشرف» حتى انفجر فى البكاء .. وهو يردد .. يا ترى عامل إيه يا أشرف .. أنت واختك إيمان دلوقت؟!.

وأحس الطبيب الشاب بأنه وصل إلى مكمن الألم فى قلب الرجل الذى ينزف بدموع أب يحترق خوفًا على أولاده .. ويتمزق ألمًا على فلذات كبده ..

طلب د. «أحمد» من عم «محمود» أن يسمح له بتناول العشاء معه فى المساء بعد أن ينتهى من عمله بالمستشفى .. ففزت الفرحة إلى وجه الرجل الكسير .. وقال له .. ده كتير علىّ يادكتور «أحمد» فقال الطبيب الشاب .. ليس هناك شىء يكثر عليك يا عم «محمود».

◆◆◆

وفى المساء أحضر الطبيب العشاء .. وجلس إلى جوار عم «محمود» .. كابن حنون .. ونظرات الرجل تنم عن منتهى الامتنان وقمة التأثر .. وفتح عم «محمود» قلبه للدكتور «أحمد» .. وبدأ يحكى بعد طول صمت .. والطبيب الشاب يستمع بانتباه شديد .. واهتمام كامل.

◆◆◆

قال عم «محمود».. كنت شابًا مثلك.. ممتلئًا بالحيوية والأمل.. محبًا للحياة والانطلاق.. ونشأت فى عائلة فقيرة.. وبرغم الفقر كنا سعداء.. راضين.. نتقاسم اللقمة.. ونفترش الحصير والأرض.. ولا نشعر أبدًا بالحقد أو الحسد على أى إنسان.. كانت حياتنا بسيطة.. تمضى بلا أى حساب للزمن.. نعيش يومنا وننام سعداء.. وكل يوم يأتى برزقه!

وعلمنى أبى النجارة.. فعملت فى الورش.. وأصبحت من العمال المهرة وعندما وصل عمرى عشرين عامًا تزوجت من ابنة الحلال التى عشت معها أحلى أيام حياتى..

وفى سنوات قليلة.. أهدانا المولى - عز وجل - وحيدنا «أشرف» ووحيدتنا «إيمان».. فكانا الزهرتين المتفتحتين اللتين تملآن حياتنا بعطر جميل.

ومرت الأيام.. وتزايدت متطلبات الحياة.. وكثرت مصاريف العيال.

وفى يوم من الأيام.. عرض على أحد أصدقائى أن أتعاون معه فى عملية بسيطة.. وقال لى إن وراءها خيرًا كثيرًا.. سألته.. ما هو نوع العمل المطلوب؟! فقال كل المطلوب مشوار صغير.. تسافر لتحضر حقيبة بها بعض البضاعة لتاجر من «تجار الشنطة».. ولأنك غير معروف فى الجمارك.. فلن يلفت شكلك نظر المسئولين وستمر «الشنطة» بدون جمارك!

ويمضى «عم محمود» فى حكايته الحزينة ويقول الحقيقة قلبى انقبض.. لكن هذا الشيطان الذى كنت أظنه صديقًا مخلصًا

زين لى الأمر.. وقال لى.. ليس هناك أى خطورة.. حتى لو استوقفك رجال الجمارك.. فلن يحدث شىء.. فقط ستدفع الجمارك «ويا دار ما دخلك شر»!

◆◆◆

وتنساب الدموع من عينى «عم محمود» وهو يتذكر الموقف فى مطار القاهرة.. عندما فتح رجال الجمارك الحقيبة التى كان يحملها وقطعوا أرضيتها المزدوجة بموسى حاد.. ليفاجأ بطرب «الحشيش» المتراصة على أرضية الحقيبة.. ويسقط مغشيًا عليه!

◆◆◆

عشر سنوات مرت علىّ الآن وأنا أدفع ثمنًا لجريمة لم أرتكبها عن عمد.. ولكن شاء حظى العاثر.. وجهلى وحسن نيتى أن أكون ضحية.. وأتجرع فى كل يوم طعم المرارة مضاعفًا من أجل ولدىّ الحبيبين اللذين كتب عليهما أن يقضيا طفولتهما وشبابهما أيتامًا.. ومن أجل زوجتى الطيبة الحنون التى حرمتها من السعادة فى زهرة شبابها.. وزرعت دون أن أقصد الحزن والألم فى حياتها!

◆◆◆

حاولت أن أكفر عن ذنبى طوال الفترة الماضية.. كنت أعمل بكل جهدى داخل مصنع الأثاث المنزلى بورشة السجن.. حتى أربح ما يمكن من مال.. أرسله إلى أسرتى المسكينة.. ليكمل الأولاد دراستهما.

وبالفعل وصل «أشرف» إلى الثانوية العامة.. واجتازها

بنجاح ومجموع عال.. ودخل هذا العام كلية الهندسة.. ووصلت «إيمان» إلى الثانوية العامة.. ولكن..!

◆◆◆

ويجهش الأب المسكين بالبكاء.. ويقول.. وبعد أن جاهدت من وراء القضبان.. وحاولت أن أقود قارب الأمل لأصل بهما إلى شاطئ الأمان.. دهمنى فجأة المرض.. أصبت بانزلاق غضروفى.. وكان لابد أن أتوقف عن العمل بأمر الأطباء.

وبصوت متهدج تخنقه الدموع.. ينظر «عم محمود» إلى «د. أحمد» ويقول له.. أعرفت الآن يادكتور.. ما الذى يجعل رجلا فى سنى.. يبكى مثل النساء؟!

كل الأضواء انطفأت إلا ضوءًا خافتًا ينبعث إلى جانبها فى هدوء. سكنت فجأة الحركة الدائبة فى المكان. انصرف الجميع إلا هى.. وانسحبت كل علامات الحياة الصاخبة التى يضج بها مكتبها الأنيق منذ الصباح الباكر حتى هذه الساعة.. العاشرة مساء!

أحست فجأة ببرودة غريبة تجتاحها.. شعرت بأن الحياة الصاخبة لم تنسحب فقط من مكتبها.. بل انتزعت من أعماقها شيئًا لا تعرفه!

- ما هذه المشاعر القاتلة؟ من أين أتت؟ لقد كان اليوم، مليئًا بالانجازات.. كنت أضحك من قلبى مع كل الموظفين

والموظفات اليوم، وكان صدرك متسعًا للجميع. هكذا قالوا جميعًا.

إذن.. لما هذا الإحساس الذى قفز فجأة إلى أعماقى؟ ما هذا الحزن الذى تسلل إلى داخلى بلا سبب؟!

استغرقتها التساؤلات.. وتمكن إحساسها المباغت القاسى منها.. فقررت أن تغادر المكان فورًا.. ربما كان الإرهاق طوال اليوم سببًا فى هذا الاكتئاب الذى هب فجأة كعاصفة من المشاعر المتضاربة تضغط على مشاعر الحزن داخلها.. وتستفزها!

فى سيارتها الفارهة اخترقت شوارع القاهرة المتألقة فى الليل لم يغادرها ذلك الإحساس الغامض.. وعادت إلى حوارها الداخلى من جديد:

ـ ماذا دهاك؟ ماذا ينقصك؟ لماذا لا تقنعين وترضين؟ أردت نجاحًا، فأصبحت أشهر سيدة أعمال فى مصر.. حلمت بحياة ناعمة مرفهة تنعمين فيها بعد كفاح وشقاء سنوات طوال.. فتحقق لك ما حلمت به.. وأكثر. دست على قلبك ـ نقطة ضعفك ـ وانطلقت بكامل طاقتك صوب الهدف.. فأثبت أنك أقوى من رجال كثيرين لم يتمكنوا من التحكم فى مشاعرهم وأحاسيسهم بهذه القدرة المبهرة! قررت أن تكونى مستقلة.. لا يتحكم فى حياتك رجل ديكتاتور أنانى.. ولا يسفّه من قدراتك إنسان مهما كان.. ففعلت وترجمت قرارك إلى حقيقة يشهد بها الجميع.. وينحنون فخرًا وإعجابًا بنموذج فريد لامرأة ذكية.. جميلة.. وناجحة.

ـ إذن ماذا؟

ـ أعتقد أنه الملل الذى يلازم الرفاهية.. إنها مشكلة من ليس لهم مشكلة.. هؤلاء الذين يحققون كل أحلامهم.. وفوق أحلامهم.. فيزهدون كل شىء. ويعجزون عن خلق حلم جديد يجعل لحياتهم هدفًا. معنى. وقيمة أليس كذلك؟

ـ ربما.. لكن.. لكننى أحس بوحدة قاتلة!

ـ برغم كل الناس الذين تزدحم بهم أجندة يومك.. وكل الصفقات التى تدرسينها والأوراق التى تنتظر توقيعك والمشروعات التى يدب العمل فيها بناء على أوامرك برغم كل هذه الحياة الثرية.. المليئة بالأحداث والإنجازات والنجاحات تقولين وحدة.. كيف؟ من أين تأتى؟!

◆◆◆

على سريرها ألقت جسدها المرهق فوق الفراش الوثير الناعم.. فاعترتها لحظة أمان.. وتسلل إليها شعور بالدفء.. امتدت يدها إلى كتاب يرقد بجوار سريرها.. قلّبت صفحاته فى محاولة للهروب فى موضوع آخر يجذب مشاعرها وتفكيرها بعيدًا عن نفسها.. مرت دقائق وهى تدفن رأسها المرهق بين صفحات الكتاب، وألقت به بعيدًا.. لتسبح عيناها فى سقف الغرفة بعد أن جافاها النوم..

غلبها النوم أخيرًا وراحت فى إغفاءة بين اليقظة والنوم.. ظهر فجأة وجه تعرفه جيدًا.. إنه هو.. لا يمكن أن تخطئ

ملامحه مهما طالت السنون .. فهذه الخطوط محفورة فى .. فى ثنايا قلبها .. مخبوءة فى أعماق كيانها .. جرت إليه مثل طفلة عثرت على أمها فى مولد كانت فيه تائهة .. ضائعة ! ارتمت فى أحضانه .. تبكى .. ويرتفع صوت البكاء .. يرتفع .. وتنساب أشجانها فى فيض من الدموع.

بيدين حانيتين يلمس وجهها الحزين .. يجفف الدموع المنسابة ويحتوى الشجون المخبوءة .. تسود بينهما لحظات من السكون .. تتولى العينان الحوار كله .. تقول النظرات الكثير .. تحكى الكثير .. تروى ذكريات السنين .. آلام السنين .. تتواسيان .. تتهامسان .. وتصرخان .. فى صمت !

◆◆◆

تقفز مفزوعة من حلمها الجميل على صوت طرق بالباب تستجمع نفسها .. وتنظر إلى وجه الخادمة التى أتت بمائدة الإفطار وعليها قهوة الصباح والجرائد ولم تنبس بكلمة .. فما تزال عيناها سابحتين فى عينيه الغائبتين .. وما يزال قلبها ينبض شجنًا وحزنًا على حلم العمر الذى ضاع !

□ «الحياة مرة أخرى» مجموعة أوراق قارّة من صدر الكاتبة نوال مصطفى ، وظلت تتسكع حتى استقرت بين أحضان كتاب ، هذه الأوراق مؤلفة من مشاعر وأحاسيس نامت على سن قلم ، وتحولت إلى صور أخاذة ، ولوحظ عند قراءتها أن أنفاس أصحابها وأبطالها ، حيّة !

مفيد فوزى

مجلة صباح الخير

الخميس ٩ يناير ١٩٩٢

□ «الحياة مرة أخرى» هو اسم المجموعة القصصية التى صدرت حديثًا لنوال مصطفى عن المؤسسة العربية الحديثة تضم ٣٥ قصة فى ١٧٥ صفحة وجميعها قصص تفيض بعذوبة كاتبتها وبرقتها وبنظرتها الحانية للحياة الإنسانية ، وهى قصص تتفاوت فى موضوعاتها وفى مستواها الفنى لكنها جميعًا قصص إنسانية بالدرجة الأولى تضيف لقلم نوال مصطفى الصحفى بعدًا أدبيًا متميزًا ، وربما كانت قصة «اللوحة» التى تبدأ بها الكاتبة مجموعتها هى أكثر قصص المجموعة نضجًا تليها قصة «هو والقلم» فمرحبًا بنوال مصطفى كاتبة أدبية رغم أنها فى تواضعها المعهود لم تسم كتابها مجموعة قصصية .

محمد سلماوى

جريدة الأهـرام

الجمعة ٣١ يناير ١٩٩٢

□ الكتاب عبارة عن لوحات رائعة جميلة رقيقة ليست مرسومة بل منظومة فى كلمات كلها نبض والنبض معناه الحياة ، إن لها قدرة فذة على خلق الصورة النابضة الحية المرسومة بالكلمات .. بالنثر . بالألحان . بالموسيقى الرومانسية الشاعرة .. بالكتاب ٣٥ لوحة أدبية معجزة .

إسماعيل يونس

جريدة الأخبار

الاثنين ٢٧ يناير ١٩٩٢

□ عرفت نوال مصطفى ، صورة مشرقة للجيل الجديد من العاملين فى بلاط صاحبة الجلالة ، تميزت بموهبة مبشرة تبرز فى براعة اختيار موضوعاتها وأسلوب معالجتها مما جذب إليها الأنظار بسرعة ..

ولم أكن أعرف إنها تجمع إلى جانب ذلك موهبة أدبية وأسلوبا شاعريًا مرهفا ، بدا فى الصورة الانسانية التى

التقطت أغلبها من الواقع الحى الذى التقت به فى مشوارها الصحفى وحياتها اليومية ، ونقلته بقلمها برشاقة تحسدها عليها كثيرا ممن سبقتها فى هذا المجال .

محمد مصطفى غنيم

جريدة الأخبار

الأحد ٢ فبراير ١٩٩٢

□ أجمل ما فى الكتاب الأسلوب السهل الجميل والرشيق الذى تمتاز به الزميلة نوال مصطفى .. وذلك نابع من خلال إقترابها الشديد بقلبها وقلمها من حياة الناس البسطاء .. تنقل مشاعرهم وحياتهم وكذلك آلامهم .

حنفى المحلاوى

جريدة الوفد

الأحد ٩ فبراير ١٩٩٢

□ نوال مصطفى لا تكتب عن العظماء والمشهورين الذين يؤرقوننا بأخبارهم وصورهم وتصريحاتهم ليلا ونهارا .

بل تكتب عن اللحظات النارية فى حياة خلق الله العاديين .. والهامشيين .. الذين لا تعرفهم المؤسسات وتجهلهم الأضواء .. وتعتبرهم الدوائر الرسمية مجرد أرقام على الورق .

لندن ـ أحمد جودة

جريدة صوت الكويت

الخميس ٣٠ يناير ١٩٩٢

□ سر كتاب «الحياة مرة أخرى» للأديبة نوال مصطفى أنها تملك القدرة على الوصول لمشاعر الناس بأقصر الطرق وسلاح نوال مصطفى هو البساطة ولهذا أعيد دائمًا تأمل كتابها ـ الحياة مرة أخرى ـ أكثر من مرة !

طارق الشناوى

مجلة رزو اليوسف

الإثنين ٢٠ يناير ١٩٩٢

□ وأنت لا تملك فى النهاية سوى أن تقرأ .. ليس لأنك مضطر لأن تقرأ .. وإنما لأنك ستندهش أن كل هذه الوجوه حولك وفى كل مكان .. ولكنه إيقاع الحياة الصاخب المجنون الذى لم يعد يسمح لأحد بالتوقف والتمهل والتأمل . وإذا كانت هناك حكمة قديمة لأحد الأدباء يقول فيها : بعض الناس يشكون من الشوك المحيط بالورد .. أنا شخصيًا أشكر الأشواك لأنها أعطتنى ورودا .

وهذا بالضبط ما فعلته نوال مصطفى .. لقد جمعت الشوك من الطرقات واختزنته فى قلبها وعينيها واكتفت بأن تهدينا الورود .. ونحن نشكر نوال على ورودها ومعاناتها .. نشكرها بامتنان عميق على «الحياة .. مرة أخرى» .

ياسر أيوب
مجلة الأهرام الرياضى
الأربعاء ٢٩ يناير ١٩٩٢

□ قصص الكتاب تجمع فى لغتها بين لغة القص متمثلة فى الإتكاء على الشعرية واستكناه مكنون الذات ، واستبطان ما تختمله النفس من عذابات وآلام فى بناء قصصى جديد ، يرتكز على الشفافية والخلق . ثم لغة الصحافة حيث اعتمدت الكاتبة على ما تحمله ذاكرتها من مادة إنسانية وواقعية يزخر بها الواقع المصرى الذى تشتبك معه الكاتبة بحكم عملها ككاتبة وصحفية فى جريدة «الأخبار» وشرعت فى كتابة قصصها التى يمكن أن أسميها «القصص الأخرى» .

أحمد الشهاوى
مجلة نصف الدنيا
الأحد ١٢ يناير ١٩٩٢

□ لم تعد الكتابة الأدبية تخضع لقوانين تحتكر قدرتها على الابداع .. أو تحد من تفاعلها المطلق مع عناصر الوجود والواقع من ناحية وعناصر الجمال بمعناه الفلسفى من ناحية أخرى .

والكتابة القصصية على وجه التحديد لم تعد خاضعة لمقاييس السرد التقليدى أو التطور الدرامى للحدث والشخصية كما كان معروفا عنها من قبل ، ولكنها أصبحت عملية تخضع للتداعى الحر فى بعض الأحيان أو تخضع لتيار اللاوعى أو الوعى فى أحيان أخرى أو التقرير والقصدية فى غيرها .. وهكذا ، بحيث نجد الآن على مستوى القصة العربية والعالمية «حالات» من الكتابة لا تخضع لفن القصة بقدر ما تخضع لفن الكتابة ذاته .. لقد أصبحت الكتابة بحد ذاتها أيًا كان شكلها أو تداعياتها أو دلالاتها ، أصبحت فنًا ، ربما يحمل بداخل تفاعلاته الخاصة مقاييسه الجمالية أيضا وأسرار تشكله وتأثيراته ، وتفاعله الحر فى عملية البث والتلقى .. أخذًا وعطاء .. شدا وجذبا .. بين الكاتب المبدع والمتلقى الايجابى ، الذى لا يتخذ موقفًا معدًا سلفا أو جاهزًا لنمط محدد أو تعمل مخيلته على نموذج لما يمكن أن يقرأه

أو «جاهزيه» ما للفعل الابداعى المكتوب .

وهكذا لم تعد «الحدوته» مطلبًا أو هدفًا فى تلك الكتابات ، وقد اكتشف يوسف إدريس ذلك فى وقت مبكر واتخذ لنفسه منهجًا «كتابيًا» فى مفكرته بجريدة الاهرام ، وكان على وعى تام بما يفعله وليس عجزًا إبداعيًا كما توهم البعض .. استنادًا إلى الدور الأساسى الذى من أجله تكون الكتابة أيًا كان شكلها أو نوعها ، وهو الدور الاجتماعى بالدرجة الأولى .

وأتصور أن ذلك بحد ذاته هو محور التلقى الايجابى الذى يجب أن يكون بين أى حروف تسود الورق الأبيض وبين الناس .

وهذا بالضبط ما تفعله خمس وثلاثون لوحة أدبية فنية يضمها كتاب نوال مصطفى «الحياة .. مرة أخرى» ، الذى صدر مؤخرًا بالقاهرة عن المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع فى سلسلة «أدبيات» وهو الكتاب الرابع فى هذه السلسلة التى يدل عنوانها على هذا المعنى الذى نقصده بالضبط «أدبيات» .. دون تحديد أو إجحاف بحق الكتابة أو مصادرة نوعية على الابداع .

وأنا أتصور أيضًا أن الكتابة بهذا الشكل عند نوال مصطفى لم تكن عفو الخاطر أو وليدة الصدفة ولكنها تعى ما تفعله وتدرك الحقل الجديد الذى تحرثه .. وتسير على هذا الخط من الكتابة بقناعة وثقة من أن الرسالة التى تبغى توصيلها لن تصل إلا إذا كانت على هذا القدر من البساطة والعفوية والبلاغة الخاصة جدًا ..

والكتابة عند نوال مصطفى أيضا نوع من التصوف والوجد ورغم ذلك هى تشتبك بوعى مع الواقع وتحملنا معها مسؤولية السعى بجدية نحو تخليص هذا الواقع من أثقاله وأحزانه وكدره .. دون إغراقه فى الرومانسية ودون أن تجرحنا بقسوة الحياة وجبروتها ، فثمة تهدهدنا بأحلامها وآمالها وتفاؤلها فى معجزة تحدث أو قدر يتدخل أو إيمان يتفجر . عقيدة تصمد للاغراءات أو عزيمة تتجاوز التحديات كما يتجلى ذلك فى حكايات مثل «حكاية أم صابر» ، أو «الحياة .. مرة أخرى» التى اتخذت منها عنوانا لمجموعتها الأدبية ولا أقول القصصية ، أو «قارئة الفنجان» أو «أقوى من الحياة» . وغيرها من الحكايات .

وتارة أخرى تخذنا على جناح الرمز الشفيف لترفع عن أعيننا غشاة

الابصار كى نبصر فعل الزمن والأيام أو النفس البشرية ومكابداتها بين الخير والشر ، بين النورانية والجحود أو تقلباتها الشعورية بين الفرح والحزن ، بين الأسى والحبور بين الحب والضغينة .

وبين هاتين الحالتين من صور النفس وتصوير الفعل وفنية الكتابة تأخذنا نوال مصطفى فى حالات شعورية وتساؤلات وجودية وفلسفية عميقة الدلالة فى غير حالة من حالاتها ، كما فى «ريش الحمامة» .

وتظل الكتابات هذه من النوع المشحون بالأسى والمتاعب الواقعية والميتافيزيقية لأنها تصدر عن نفس جياشة وإحساس مرهف تجاه الحياة والناس والوجود . وبقدر ما نجد هذه الكتابات تنساب فى نعومة ودون أن توعز لنا بأى قدر من القصدية فإنها تضع أمامنا هذا الكم الهائل من التوجس والحيرة والارتباك أزاء ما تورطنا فيه من نماذج وحالات ومواقف تتطلب منا اتخاذ موقف أو تحرك فينا الشعور بضرورة فعل ما أيًا كان نوعه أو احتجاج ما أيًا كانت مساحته ، صحيح أن الكاتبة لا تقدم لنا حلولا جاهزة لنماذجها المأساوية ولكنها لا تخفى أفكارها المنحازة إلى تلك النماذج فى تضافى بوليفونى مركب فى سيمفونيتها الحزينة وترددتها الكونية اليقظة .

ومن هنا فإنها تمارس علينا نوعًا من الضغط الروحى وتترك لنا الخيار بين هشاشة الوجدان وسطوة القلب والأرق الميتافيزيقى الموحش وكل ذلك يحدث بداخلنا خلال ما ولا يمكننا استعادة توازننا إلا بانحيازنا لما تريده الكاتبة وتحديد خياراتها فى صف خياراتها مع الحرية والحب والايمان بالحياة .

وهكذا تنجح فى أن تؤلمنا لكى نتعلم الفرح وتوجعنا لكى نتعلم الشعور بالسعادة وتكسر بخواطرنا لكى لا نكسر بخواطر البسطاء .. ونتخلى عن أحلامنا لكى نرى الواقع فى كليته دون تجزىء أو مثالية .

إن مثل هذه الضديات هى لتى تجعل من هذه المجموعة عملًا فنيًا له قيمته وهذا الجدل بين العناصر المؤتلفة والعناصر المختلفة هو الذى يدفع إلى شعورنا بالتواصل مع الحقيقة ومع الواقع بكافة المستويات الروحية والمادية . كما أن هذه التوليفة من الرؤى لجوانب متعددة من حياتنا تجعل من أنفسنا مرآة للفرح الذاتى والفرح الكونى .. كما تجعل الحياة قابلة أن

تكون بداخلنا ليس مرة واحدة .. بل مرة أخرى .. أيضا .

وتظل الرحلة طويلة ولا يتوقف القطار . وفى كل محطة ننتظر ما ينتظرنا فى المحطة القادمة دون أن نعى الرحلة ولا صوت القطار .. ويظل الرحيل أملا فى الوصول والانتظار ، لنظل نحلم حلم العمر مع نوال مصطفى . وتجئ اللغة على كافة مستوياتها معبأة بالبساطة قدر ما هى معبأة بالدلالات دون تعقيد فى الرمز أو إيغال شكلى أو غموض فى المفهوم الجمالى .. وبقدر ما تحقق لدينا قدرًا من الاشباع والمتعة الفنية فإنها تطرح علينا تساؤلاتها إزاء موقفنا من الكون والواقع والانسان من حولنا .. وهكذا يتأكد مضمون الرسالة التى تبث إلينا بها رغم التقديم الحزين والمنكسر الذى تقتطعه فى أول الكتاب من شعر صلاح عبد الصبور والذى يملأنا فترة وجيزة بالوحشة والظنون تلك التى لا تليث تنفك وتنحل عقدتها على مساحة البساطة والورق الأبيض معًا ، فى الحياة .. مرة أخرى» .

أحمد الحوتى

جريدة وراء الآباء
الأحد ٩ فبراير ١٩٩٢

فهـرس

١ ـ اللوحـة ٩
٢ ـ هـو .. والقلم ١٣
٣ ـ دعـوة .. من القمـر ١٧
٤ ـ لا تسرقوا .. حلمي الجميل ٢١
٥ ـ قارئة الفنجـان ! ٢٧
٦ ـ مرض اسمه الحب ! ٣٥
٧ ـ الحيـاة مرة أخـرى ! ٣٩
٨ ـ ريش الحمـامة ٤٥
٩ ـ حكاية أم صـابر ٥١
١٠ ـ مع الأطـلال ٥٩
١١ ـ سفينة على الشاطئ الآخر ! ٦٥
١٢ ـ هـل أبكيك يا أبى أم .. ؟! ٧١
١٣ ـ لحظة لقـاء ٧٧
١٤ ـ فيضـان على الورق ! ٨١
١٥ ـ فى انتظـار معجـزة ! ٨٧
١٦ ـ الانتحـار حبًا ٩١
١٧ ـ بـراءة ! ٩٧
١٨ ـ ذكريات ليلة ممطـرة ! ١٠٥
١٩ ـ أقـوى من الحيـاة ! ١٠٩
٢٠ ـ اللغـز ! ١١٥
٢١ ـ بعيدًا عن الأحـزان ١٢١
٢٢ ـ وجه فى المطـر ١٢٥
٢٣ ـ أين أنت ؟! ١٢٩
٢٤ ـ نور القلـوب ! ١٣٣
٢٥ ـ الرحيـل ١٣٩
٢٦ ـ كلمة السـر ! ١٤٣
٢٧ ـ رقيـة .. والمكتـوب ١٤٧
٢٨ ـ رسـالة .. من قلب النـار ! ١٥٣
٢٩ ـ محنة العمـر ! ١٥٧
٣٠ ـ التلميذة والأستـاذ ! ١٦٣
٣١ ـ سر السجين عبد العزيز ! ١٦٧
٣٢ ـ اعترافات لص ١٧٣
٣٣ ـ السجينة زينب ١٧٧
٣٤ ـ دمـوع رجل ١٨١
٣٥ ـ حلم العمـر ١٨٧

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع